نصوص

حصاد الذاكرة

أحمد ابراهيم الفقيه



حصاد الذاكرة

أحمد إبراهيم الفقيه

حصاد الذاكرة

ملاحظة من المؤلف

ما هى الموارد التى يستمد منها الكاتب مادة ابداعه القصصى أو الشعرى أو الروائى أو المسرحى. لن أضيف جديدا إلى ما يعرفه كل الناس إذا قلت ان أهم هذه المصادر، وأكثرها نفعا للمشتغلين بالعمل الابداعى، هى الذاكرة. وفى هذا الكتاب سيلتقى القارئ بنوع من المقالة الفنية التى تمردت على الاشكال المعروفة للكتابة الابداعية القصيرة مثل القصة والقصيدة، واتخذت لنفسها سمتا خاصا بها، واسلوباً مختلفا، كنت من خلاله اخاطب القارئ فى صحيفة يومية هى "الشرق الأوسط"، حيث تعود القارئ ان يرى فى هذه الزوايا الصحفية اليومية تعليقا يتناول الاحداث الجارية، فجعلته أنا يرى شيئا بعيدا عن تلك الاحداث، وإن كان فى ذات الوقت عميق الصلة بها، بمعنى ان ما كتبته لم ينشغل بما يجرى على سطح الواقع، وانما اراد ان يتحسس نبض الاشياء تحت ذلك السطح، ويتجول عبر تلك المساحات، التى لا ينشغل بها الا الفن، والتى تتصل بالاشياء الفاعلة فى وعى ولاوعى

المجتمع الذى تمور فوقه تلك الاحداث. انه شيء اشبه بالأحلام التى نراها أثناء الليل، فهى برغم ما تنقلنا اليه من عوالم بعيده عن عالم الواقع الذى نخوض معاركه أثناء النهار، الا انها فى نهاية المطاف، تعبير عنه، وانعكاس له، ونتيجة من نتائج التفاعل بين ذاتنا وبين العالم الذى حولنا.

هذه اذن صور فنية، إذا جاز التعبير، (لأننى لا املك تعبيرا غيره لتوصيفها) تستحضر الذاكرة، وتستفيد من مخزونها العامر بالأضواء والظلال، من مناخاتها واساطيرها، ايقاعاتها ورموزها، وهى لذلك لا تملك اية ادلة أو براهين تستمدها من المراجع العلمية والتاريخية، ولا تستند لاية سلطة تستمدها من الوثائق وارشيف المعلومات فى المكتبات الكبرى، سلطتها الوحيدة، هى سلطة تلك الاداة السحرية العجيبة، وذلك الاعجاز الذى لا يضاهيه أى اعجاز آخر فى عالم البشر، والذى اسمه "الذاكرة"! وتبقى نقطة فى الذاكرة، لا تختفى ولا تزول ولا تمحها تلك المادة الكيماوية الكاوية التى اسمها النسيان، وهى تلك البلدة التى درجت بها طفلا، وذهبت إلى مدارسها صبيا، ومن أفراحها وأتراحها

تعلمت أول دروس الفرح والأسى، بلادة مزدة. فإليها، إلى أهلها جميعا، اهدى هذه الحصيلة من حصاد الذاكرة.

- ١ -

تأبى الذاكرة أن تتخلى عن أوهامها. إنها لا تتركنا نمضى قانعين مع الدنيا بما تتيحه لنا من لحظات مبهجة صغيرة، وما تضعه من امكانات بين أيدينا، فتأتى لكى تعيد إلى أذهاننا ذكريات الفرص الكثيرة التى ضاعت من حياتنا والتى كان من الممكن أن تعدل مسار أيامنا وتنتقل بنا إلى مشارف أكثر هناء وسعادة من هذه الدروب الضيقة الوعرة التى نسلكها.

فرص ضاعت وانتهى زمانها وغمرتها احداث وباعدت بيننا وبينها سنوات وسنوات ولكن الذاكرة تأبى إلا أن تعرضها علينا بكل تفاصيلها. وتعيد انتاجها بعد أن أجرت عليها تحويرا وتبديلا يجعلها أكثر جاذبية وجمالا واستنفارا لمشاعر الحنين والأسى، تعذبنا بها وتفجر كوامن الألم والحسرة فى نفوسنا لأننا كنا نمتلئ غشامة ونزقاً فاضعنا تلك الفرص من بين أيدينا متوهمين اننا سنصنع فرصا أفضل

منها، وقد تكون تلك الفرص التى ضاعت حبا أو صداقة أو ثروة أو وظيفة أكثر استقرارا وأمنا، ولكن ما جدوى البكاء والندم، فالأرق والسهاد لن يعيد لنا تلك الفرصة التائهة خلف غبار الزمن، واستذكارها واستحضار أيامها لن يغير شيئا من هذه المعاناة التى نعيشها، بل هو لن يزيدنا الا معاناة وألما، ولكن الذاكرة لا تريد أن تفهم ذلك، أنها تمضى بمعزل عن ارادتنا، وباتجاه يناقض رغبتنا فى ان تبقى الملفات المقفلة مقفلة إلى الأبد، فادينا هموم ومتاعب هى التى تستحق الجهد والعناء ولدينا مشاكل تريد تفكيرا سليما حتى نجد لها حلا، وهى أولى بهذه الساعات التى تأخذها الذاكرة فى استعراض الهموم الغابرة، ثم من ادرانا بأن اختيارنا الذى نندم عليه الآن لم يكن اختيارا صحيحا، ومن قال ان تلك الفرص التى اضعناها لم تكن تحمل لنا شقاء لا ندريه، فلماذا نعلق أبصارنا بها وننظر اليها وكأن أبواب الحظ قد قفلت فى وجوهنا. وكأن هناك نجما فى السماء يلاحقنا ويتخذ موقفا عدائيا منا، وهو المسئول عن اضاعة هذه الفرص التى كانت ستعبر بنا إلى أرض الحلم والأمنية، نترك مشاغلنا ونمضى مع الذاكرة وهى تقلب تلك الدفاتر القديمة، ان هناك بدائل

عرضت علينا هى افضل من البدائل التى اخترناها ويجب ان ندفع الثمن أرقا وقلقا وندما، وننسى أننا لو اخترنا تلك البدائل لجئنا اليوم ننكر ذلك على أنفسنا، ونتصور أن هذا الذى نعيشه الآن ونضج منه بالشكوى سيكون على البعد شيئا جميلا رفضناه. ننسى ذلك وننسى أنه ندر بين الناس من هو راض عن حياته كل الرضا، أو أن حياته قد خلت من المشاكل والهموم، ونسمع عن اناس وصلوا إلى درجة أسطورية من الثراء وحققوا الجاه والسلطة والثروة. ومع ذلك نراهم أحيانا ينتحرون، ونستغرب كيف لمن ملك الجاه والثراء أن ينتحر، وكيف لا يحميه هذه المجد من زحف المشاعر السوداء التى تدفع إلى الكآبة والانتحار.

نقف للحظة حائرين، ثم نرمى بالصحيفة التى قرأنا فيها الموضوع ونعود إلى الشكوى والأنين، لقد أسقطت الذاكرة هذا الكلام الذى قرأناه، وعادت مرة أخرى تحمل ملفاتها وتصاويرها عن الأزمنة الجميلة الضائعة، ودون أن تتكرم وتتوقف مرة واحدة لتقول لنا إن هذه اللحظة التى نعيشها الآن لحظة جميلة نجت من الضياع والإهمال، فهى

مثل رب العمل الظالم لا يرى الا ما عجزنا عن انجازه مغمضا عينيه عن كل ما أنجزناه.

- ٢ -

الذى يسرف فى التفاؤل مثل الذى يسرف فى التشاؤم كلاهما يظلم نفسه ويجنى على الحقيقة. يرسم الأول صورة زاهية لعالم خلا من المشاكل والهموم، وإذا رأى مشكلة فان هناك دائما حلا سحرياً سوف يزيحها من الطريق، ولا يرى الثانى على الدوام الا أفقا مغلقا مظلما لا يعد بأية احتمالات للخير أو الانفراج.

وفى حين يحصد الأول الخيبات والصدمات عندما يكتشف أن الحلول السحرية ليست الا وهما وسراباً وخداعاً للنفس فإن الثانى لن يحصد أية خيبة لأنه اختار منذ البداية أن يتخذ من الخيبة مواطناً دائما لاقامته.

واذا كنا نلتقى بمثل هؤلاء الناس الذين يتطرفون تفاؤلا وتشاؤما حتى صار هذا التطرف طابعا لسلوكهم وأفكارهم، نستنكره وننفر منه، فليس معنى ذلك أننا قد تحررنا تماما من مثل هذه اللحظات التى تهاجمنا وترغمنا على ان نرى

الاشياء بلون تلك اللحظة التى غابت فيها الموضوعية وتاهت الحقيقة وانغلق فيها الأفق انغلاقا كاملاً أو انفتح انفتاحا خادعا على مدن الفرح السرابية. ولكننا لا نجعل حياتنا ارتهاناً كاملاً لتلك اللحظة كما يفعل اصدقاؤنا الذين يسرفون فى التفاؤل والتشاؤم حتى صار هذا الاسراف جزءاً من شخصياتهم، أن هى إلا لحظة تزول بزوال حالة التأثر والانفعال التى جاءت بها لنعود بعدها إلى رؤيتنا المتوازنة للاشياء التى لا يفسد موضوعيتها الافراط فى التفاؤل أو التشاؤم.

وما التفاؤل والتشاؤم الا بقايا أساليب التفكير البدائى عندما كان الانسان يعتمد على الاسطورة والخرافة فى تفسير ظواهر الكون ويستخدم الحدس فى الاهتداء إلى طريق آمن بين الأحراش والغابات التى تسكنها النمور والاسود، ولازالت بقايا هذا الفكر الخرافى الاسطورى تتجلى فى سلوكنا وممارساتنا واساليب تفكيرنا وما نطالعه فى أبواب الحظ وقراءة النجوم وما نراه ينتشر فى أنحاء العالم من دكاكين التنجيم وقراء الطالع وبائعى الأوهام. وبرغم ما حدث من انجازات علمية وفكرية فى المناهج والنظريات والعلوم

التى تدرس الطبيعة والتاريخ وسلوك الانسان فاننا مع ذلك نلجأ إلى هذا المخزون الذى جاء من عصور الأساطير والخرافات ونستخدمه فى الرؤية والتحليل.

سوف يحقق العلم مزيدا من الانجازات المذهلة ولكن هذا التقدم العلمى بكل سطوته وجبروته سوف لن يقضى على حاجة الانسان لأن ينسحب احيانا إلى ذاته يستثير القوى الكامنة فى نفسه من حدس وخيال.

- ٣ -

مهما كانت المبادئ افكارا مطلقة فان الممارسة تبقى شيئا نسبيا ومشروطا بزمان ومكان وظروف وعلاقات مع واقع ومحيط. الحرية على سبيل المثال كلمة، وقيمة، ومبدأ، وهى عندما تكون كذلك فهى تنتمى إلى الأفكار المجردة والمطلقة. ولكن ممارسة الحرية تبقى نسبية وستبقى نسبية ككل شيء أخر نمارسه فى الحياة، والسجين الذى خرج من السجن، هل صار حقا حرا؟

أنها حرية نسبية سواء خرج فى وطن مازال يرزح تحت الاحتلال أو فى وطن حقق حريته واستقلاله. وأكثر

البلاد فى العالم ديمقراطية هى أكثرها امتلاء بالمظاهرات التى تستنكر وتحتج وتطالب بإباحة هذا الشيء أو ذاك، وسيبقى الحال كذلك على مدى الزمن. الممارسة التى تسعى وراء تحقيق المبدأ دون أن تدركه، هى ذاتها قصة الحمار والجزرة مرة أخرى. تلك الجزرة المعلقة أمام وجه الحمار لتكون دافعا وحافزا للمضى إلى الامام دون أن يدركها لأنه لو ادركها لتوقف عن المسير. وهذا كلام لا اكتبه لمجرد اننى أريد أن افضى برأيى حول المبدأ والممارسة أو النظرية والتطبيق أو المطلق والنسبى أو المجرد والعينى. اننى اكتبه ليقرأه اولئك الذين يرفعون ايديهم فى كل اجتماع اعتراضا على ما يحدث بحجة أن القضية "قضية مبدأ" ويصورون المبدأ كأنه جدار يمنعنا من الحركة والممارسة والفعالية فى حين أنه ضوء بعيد نهتدى به لنعرف الطريق. يطالبون بان نحقق الأهداف جميعها فى قفزة واحدة وينسون ان المسألة اشواط نقطعها ومراحل نعبرها وصولا إلى تحقيق تلك الأهداف وتطبيق تلك المبادئ. والمثل الذى يقول ان مسافة الالاف ميل تبدأ بخطوة واحدة يؤكد انه لا سبيل إلى قطع تلك المسافة دون الخطوة الأولى.

هذه هى حقائق الحياة وهذه هى حقائق الواقع.

وان يكون الانسان واقعيا ليس معناه ان يتنكر للمبادئ، كما ان رجل المبادئ لا يجب أن ينسى الواقع، وبين الواقع والمبدأ هناك مساحة هى وحدها التى تتيح لنا تعاملا صحيحا مع القضايا التى تهمنا والتحديات التى تواجهنا. ومعنى ذلك انه سوف يفشل كل من تذكر الواقع ونسى المبادئ أو تذكر المبادئ ونسى الواقع. هذه نقطة أولى والنقطة الثانية ان الافتراض بان هناك طريقا واحدا يقود إلى تحقيق الأهداف وتطبيق المبادئ افتراض خاطئ يصادر كل فرصة للحوار وكل بادرة للاجتهاد، وهذا ما يجب ان نعيه ونتعلمه بعد كل هذه الفواجع والنكسات.

- ٤ -

لم أكن افهم فى أول عهدى بالقراءة لماذا يكون الانسان الذى يتولى التفكير بالنيابة عن الآخرين موضع لوم وهجوم وانتقاد من محررى الصحف الطلابية التى كنت أقرأها واندهش لجرأتها وصراحتها.

كان المجتمع الذى خرج من عهود الهيمنة الاجنبية يبدأ حياة جديدة ومرحلة جديدة بعد أن تحطمت أسوار العزلة والحصار وتسللت رياح العصر عبر الابواب والنوافذ التى فتحت حديثا. وكانت الافكار التى ترفع شعار الادب الجديد وتهاجم المجتمع التسلطى ووصاية الجيل القديم على الجيل الجديد تجد لها انصارا وسط الشباب وكنت أريد أن افهم وأنا التقى لأول مرة بمثل هذا الفكر لماذا يكون التفكير بالنيابة عن الآخرين جريمة كما تقول هذه المقالات السياسية. وهذا الذى يفكر بالنيابة عنا حمل نفسه من الهموم ما يغنيه عن أى هم آخر نضيفه اليه عن طريق اللوم والتقريع والسخط. وكنت أرى أنه يستحق الشكر وسأكون شخصيا فى غاية الامتنان لو وجدت أحدا يفكر بالنيابة عنى ويعفينى من مسئولية التفكير لنفسى فأفوز بهناء البال وراحة الضمير، وسأكون أكثر سعادة لو باشر منذ اليوم الذهاب إلى المدرسة وشارك فى اداء الامتحانات بدلا منى. ولا شك أن الأمر اقتضانى وقتا وتحصيلا ونضجا حتى ادركت مدى خطل هذا الرأى. وليس السبب فى ذلك أن من يسلبك حق التفكير انما يسلبك اهم شرط من شروط إنسانيتك ولكن لأن مهمة أن

يفكر احد بالنيابة عن انسان آخر هى فى الاساس مهمة مستحيلة، لأنه لا أحد يستطيع أن يفكر بالنيابة عن انسان آخر الا اذا كان يحس باحساسه ويشعر بشعوره فهل يمكن لانسان ان يقوم بمثل هذه المهمة؟ وهل يستطيع هذا الانسان مهما كان قريبا وحميما منك أن يجوع إذا جعت ويتعب إذا تعبت ويعطش إذا عطشت ويمرض إذا مرضت ويشفى من مرضه إذا شفيت من مرضك؟ ولأن ذلك مستحيل فإن من المستحيل أيضا ان يستطيع انسان فى الوجود أن يفكر بالنيابة عنك، ومعنى ذلك أن هؤلاء الذين يمنحون انفسهم هذا الحق يكذبون علينا وعلى انفسهم، انهم لا يفكرون وانما يعطلون الفكر ويعرقلون الحياة ويربكون دورتها ويصيبونها بالعقم والجمود. وإذا كنت قد أدركت صحة ذلك الهجوم على أنظمة الحكم الشمولى إلى حد اننى صرت استعير - أثناء حديثى عنها - لهجة الصحف الطلابية التى قرأتها فى مطلع حياتى، فاننى مازلت حتى الآن لا أفهم لماذا يصر بعض الناس على تحميل أنفسهم هذه المسؤولية والتفكير فى هموم الآخرين ومشاكلهم، والضحك والبكاء والحلم والحديث بالنيابة عنهم،

فماذا تراهم يستفيدون من ذلك غير التعب والشقاء وكوابيس الليل والنهار.

- ٥ -

تؤرقنى المشاكل المزمنة فى عالمنا بمثل ما تؤرق أى انسان آخر ابتلاه ا بمتابعة الاحداث السياسية والاستماع إلى نشرات الاخبار بمعدل نشرة كل ساعة.

وكغيرى من هؤلاء البؤساء الذين تؤرقهم مشاكل العالم اقضى جزءاً من الليل افكر فى انجع الوسائل وأمثل الحلول التى تحقق لعالمنا الوفاق وتضع حدا للحروب وتزيل اسباب التوتر ومراكز التأزم والصراع. وكثيرا ما بدا لى أن الحل سهل ميسور فاستغرب كيف لا يهتدى لمثل هذا الحل أصحاب النزاع بحيث يوقفون نزيف الدماء وضياع الموارد والارزاق. ثم اعود فاتذكر أن ا لم يمنح هؤلاء الناس عقلا مثل عقلى ووجدانا صافيا مثل وجدانى، وأتأسف للبشرية التى لم تهيئ لرجل مثلى يشقى من أجل اسعاد العالم فرص تطبيق الأفكار التى تزوره أثناء الليل وتضمن بذلك أمن العالم وسلامته، ومع ذلك فاننى افرح أشد الفرح عندما أسمع

فى نشرات الأخبار أن هدنة قد عقدت، وأن اتفاقا قد تحقق بين اطراف النزاع، وأن العقل قد حل مكان الجنون والحكمة مكان الحماقة والغباء. وان حلا يشبه الحل الذى اهتديت اليه منذ عام مضى قد جاء اليوم من عثر عليه وافلح فى تطبيقه، فانصرف بفكرى واعصابى إلى قضية أخرى من قضايا الصراع التى لا تنتهى والتى تحتاج هى الأخرى إلى سهر ومعاناة كما تحتاج إلى قدح زناد الفكر والبحث عن طريق للخلاص.

وقبل لحظات قصيرة من عثورى على الحل اسمع فى الأخبار ان المشكلة الأولى قد عادت للظهور وان الحل الذى ظننت بأننى أول من اهتدى اليه لم يكن حلا، بدليل أن الصراع قد تفجر من جديد اكثر حدة وشراسة، فأعود مرة اخرى إلى مراجعة مناهجى فى البحث والدراسة لأنها أوصلتنى إلى هذه النتائج الفاشلة. ويمكن اعتبار المشكلة اللبنانية مثالا صارخا على هذه المعاناة التى أعيشها. باعتبارى مواطنا عربيا يعتبر لبنان وطنه وأهل لبنان أهله فقد وضعت هذه المشكلة فى مقدمة اهتماماتى وأوليتها القدر الأكبر من عنايتى، وصرت اتابع احداث لبنان منذ أول يوم

وقعت فيه الكارثة، أتألم لأوجاعه، وأحاول أن اهتدى إلى وسيلة اسهم بها فى اطفاء حرائقه وانهاء محنته وايقاف هذه الصراع القاتل المدمر الذى أودى بحياة آلاف البشر واحرق آلاف البساتين وهدم آلاف البنايات واحال وطنا جميلا مبهجا إلى كومة من الحجارة والهياكل العظمية. وكنت كلما حدث نوع من الهدنة والانفراج ظننت أن العقلاء قد انتصروا على المجانين، وأن الحب قد انتصر على الحقد، فقد أمنت انه بقليل من العقل وقليل من الحب تنتهى المشكلة اللبنانية، ولكن الهدنة لا تلبث ان تضيع ويعود الاقتتال اشد ضراوة وهولا، وينتقل من صراع على السلطة إلى اقتتال بين الطوائف ثم بين المذاهب ثم داخل الطائفة الواحدة والمذهب الواحد والعائلة الواحدة، وطال مدى الحرب وطال رحاها.. انتهى عقد من الزمان دون أن نرى فى الأفق بارقة أمل أو بادرة خير، ولذلك فقد قررت ان انفض يدى وأخلى مسئوليتى من كل ما يتعلق بالمشكلة اللبنانية، سوف امتنع عن سماع الأخبار وقراءة الصحف التى تتحدث عن لبنان، وسأمضى فى الحياة وكأن ليس هناك شيء اسمه مشكل لبنانى، وسوف أعلن للعالم اجمع أننى منذ اليوم لم اعد معنيا بلبنان وأننى

اترك المسئولية بكاملها لاهله وقاطنيه فقد كفانى ما عانيت من الأرق والشقاء والبحث عن حلول لا اجد لتنفيذها ما يكفى من العقلاء.

(هامش أخير اضيفه الآن بعد زمن من نشر هذا المقال، وهو اننى ما ان اخليت مسئوليتى من القضية اللبنانية ورفعت يدى عنها، واعلنت ذلك فى الصحف حتى عاد السلام إلى ربوع لبنان، وكأن ما كتبته كان تعويذة سحرية أذنت برفع البلاء، مما اغرانى بان استخدم نفس الاسلوب فى حل مشاكل العالم الأخرى، واعلن منذ الآن اننى رفعت يدى عنها وتوقفت عن التفكير فيها. فهل أكون حقا صاحب الفضل فى ان يشمل السلام كل بقاع الأرض؟)

- ٦ -

هناك تعبيرات شعبية بسيطة تختزل حكمة شعوب واجيال، ولذلك فان العودة إلى المنطق البسيط أو البدائى الذى يقول به الاميون والاميات من عجائز أريافنا وقرانا، قد يأتى بحلول لاكثر المشاكل تعقيدا.

تعبيرات تتردد على افواه البسطاء من أهلنا. نمر بها دون أن نقف كثيرا لتأملها وقد نهزأ بها فى مراحل التعليم الأولى، ثم نكتشف أن التحصيل العلمى والزاد الثقافى يقومان باحالتنا اليها. لان هذه التعابير الشائعة برغم بساطتها ودارجيتها تقدم شيئا له أحيانا عمق وقوة النظريات العلمية، ولنأخذ على سبيل المثال تعبيرا شائعا مثل "الشيء اذا زاد عن حده انقلب إلى ضده" انه تعبير بسيط ليس مركبا ولا معقدا. نمر به آلاف المرات دون أن يلفت انتباهنا. ولكن ما أن نقف قليلا لنتأمله حتى نجد انفسنا أمام حكمة عميقة لها قوة القاعدة العلمية التى لا يرشح منها الماء، انه تكثيف وتقطير لاكثر التجارب الانسانية رحابة واتساعا وعمقا. لقد صرنا نعرف الآن ان مثل هذا المثال يصدق على الطعام والشراب بمثل ما يصدق على الخصال الطيبة التى يمكن أن تتحول إلى نقيضها اذا ما زادت عن حدها فيصير الكرم سفاهة والحرص بخلا والصدق وقاحة. انه تعبير يصدق على كل شئ، أن الحب مثلا هو أكثر العواطف نبلا وجمالا وقد يذهب فى اذهاننا أن الاسراف فى الحب لن يكون الا خيرا. ولكن لو تأملنا الموقف لوجدنا أن المثل يصدق هنا أيضا.

فحب الوطن اذا زاد عن حدة تحول إلى عنصرية وعصبية وشوفينية ومعاداة للانسانية وقوة تدمير وتخريب، وحب الرجل لامرأته إذا زاد عن حده تحول إلى شقاء وعذاب وانتج من مشاعر الغيرة ما يؤدى إلى الهلاك، حتى حب الأم لأبنها اذا زاد عن حده تحول إلى تدليل وافساد لطبعه وطمس لشخصيته. وسيورثه هذا الحب شتى الامراض النفسية والعضوية.

كل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. أنه قول ينطبق أكثر ما ينطبق على هذه الفرق السياسية التى تملأ الوطن العربى والتى تتطرف فى طرحها ودعواها إلى حد أن تجد نفسها ومن حيث لا تدرى تخدم مخططات اعدائها. تسعى إلى بناء الوطن وتعمل بهمة ونشاط على هدمه وتخريبه.

- ٧ -

دعا استاذ الاقتصاد بجامعة هارفارد طلابه الذين يحضرون على يديه رسائل الدكتوراه إلى عزومة فى بيته بمناسبة انتهاء العام الدراسى، وكان الصديق العربى الذى

يحمل الآن درجة دكتوراه فى الاقتصاد والذى حكى لى هذه القصة واحداً من ضيوف تلك العزومة. وصل الحديث أثناء السهرة إلى درجة من الألفة والحميمية التى اقتضت أن يتولى كل واحد من الحاضرين تقديم فكرة لزملائه عن مراحل حياته قبل الوصول إلى الجامعة. فحكى أولهم عن ذكريات طفولته المؤلمة نتيجة لتعدد المربيات، اذ أن المسكين ما أن يتعلق قلبه باحداهن حتى ينتقل والده الذى كان يعمل سفيرا إلى مدينة أخرى فيفارق تلك المربية إلى مربية أخرى، مما احدث فى حياته فراغا عاطفيا ناضل كثيرا من اجل الانتصار على مضاعفاته السيئة. وتحدث الثانى عن قسوة والده الذى كان يرغمه على البقاء فى البيت لمذاكرة دروسه بحيث لا يستطيع أن يذهب إلى مدينة الالعاب القريبة من بيتهم الا مرة كل اسبوع. وتحدث الثالث عن أكثر ذكريات طفولته الما عندما سافر مع اسرته للتنزه فى جبال سويسرا ونسى هناك لعبته المفضلة، وهى دب كبير مصنوع من القطن ومحشو بالحلوى والشكولاته، كان لا ينام الا بصحبته. وجاء دور صديقنا العربى فحكى شيئا عن طفولته التى تتشابه مع طفولة ابناء جيله ممن جاءوا إلى الدنيا قبل الفورة

النفطية، فذكر لهم ان الخيمة التى ولد بها لم تكن تحتاج إلى استخدام المربيات لانه لم تكن بتلك الخيمة غرف لالعاب الأطفال وصالونات للجلوس وحديقة للتنزه واحواض للسباحة وملاعب للتنس والجولف، فهى خيمة صغيرة لا تزيد عن بضعة اقدام يتكدس بداخلها مع امه وابيه واخوته الخمسة، لا تملك حماما ولا مطبخا ولا دورة مياه ولم تكن للاسف قريبة من لوس انجلوس، حيث تكثر مدن الملاهى والأسواق التى تبيع الدببة المحشوة بعلب الشيكولاتة ولهذا فقد أمضى طفولته فى تلك الخيمة تسفع جلده الرياح دون أن يعرف منجزات العصر، من كهرباء، وحنفيات وثلاجات يحفظون بها الطعام لأنه لم يكن هناك طعام يحتاج إلى الحفظ.

وعندما وعى قادوه إلى فقيه كفيف البصر لتعليمه، فبدأ بجلد قدميه بالفلقة ضمانا للأدب والطاعة، وعندما مرض علقوا له حجابا فى عنقه وعالجوه بالكى فى رأسه. وعندما ابتنت الحكومة مدرسة فى القرية المجاورة، ظل يستيقظ من نومه آخر الليل ليسير مسافة عشرة اميال يمشيها حافيا حتى يصل قبل أن يضرب الجرس، ولم يكن يتأخر عن موعده إلا

اذا صادف عقربة أو أفعى تعترض طريقه فيقوم بقتلها قبل أن تقتله.

كان زملاء صديقنا العربى ينظرون اليه باندهاش فقد كان فى ظنهم أن مثل هذا الانسان لابد ان ينتهى به الأمر إلى احد سجون الحراسة القصوى، أو مستشفى من مستشفيات الامراض العقلية، لا مرشحا لنيل الدكتوراه من جامعة هارفارد.

- ٨ -

إنك لا تريد أن تخالف قول الشاعر الذى يتحدث عن العدو الذى ليس من صداقته بد، لأنك تدرك أنت ايضا حكمة هذا القول وتعرف مدى قوة بعض الاعداء وقدرتهم على البطش والتنكيل والايذاء.

إنك انسان مسالم بسيط يمشى خلف ظله، ويتحاشى المراهنة على صراع الديكة. ولكنك لا تستطيع مع ذلك أن تعترف بأن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا إذا تظاهرت كاذبا بمحبة وصداقة الرجل الذى يعاديك ويضمر لك الشر. بل بالعكس من ذلك، فانت ترى أن الحياة لا يكون لها معنى إذا

لم تكن صادقا مع نفسك ومع الآخرين. إنك لا تريد أن تبدى مشاعر العداء والكراهية لأى انسان، ولكن ليس معنى ذلك أنك تدعى المحبة والمودة والاخاء، نفاقا وتزلفاً وكذباً، لقد ارتضيت البقاء بجوار ظلك لأنك تعففت عن الدخول فى اسواق المنافقين ولابسى الأقنعة والمتاجرين بالمشاعر والعواطف، فكيف يمكنك أن تصدق بأن هذا الموقع المتواضع البسيط الذى نأيت به عن المتسابقين والمتزاحمين والراغبين فى المراكز والكراسى صار هو الآخر مهددا إذا لم تعش منافقا متزلفاً. إنك تدرك أن هذا الرجل الذى يعاديك مهما كان قويا لن تزيده بهذا الخوف والتخاذل إلا قوة على قوته، ولن تضيف لنفسك إلا ضعفا يتراكم فوق ضعفك، ومادمت صاحب حق فمعنى ذلك أنك تتنازل عن قطعة الأرض الصغيرة التى تقف عليها والتى يمنحها لك هذا الحق، ومن أجل ذلك كله فان المعادلة تأتى مقلوبة عندما نقول إن من نكد الدهر على الحر أن يصادق انسانا لا يحبه. وطالما أن الأمر كله نكد فى نكد، فليكن مبعث هذا النكد على الحر أن يرى عدوا ليس من عدواته بد، بدلا من صداقته،

وبهذا يستقيم المعنى وتنتهى هذه الازدواجية فى السلوك والمعاملة التى يأسف الشاعر لأننا ارغمنا عليها.

وإذا كان صحيحا ما يقولونه من أننا نحن الذين نصنع الطغاة ونتيح لهم فضاء يتحركون فيه عندما نهرب من أمامهم، فمعنى ذلك أن هؤلاء الطغاة سوف يبطل طغيانهم إذا ما وقفنا جميعا فى وجوههم وملأنا هذا المجال الحيوى الذى تركناهم يتنفسون ويتحركون فيه.

ودعنا من الحديث عن الطغاة الكبار، فأولئك هم يتقاسمه جميع الناس. ان ما يهمنا الآن هم هؤلاء الطغاة الصغار الذين ينتشرون فى شتى ميادين العمل ومجالاته، ونجد أنفسنا فى مواجهتهم كل صباح، وما أن يكترى الواحد من هؤلاء حصانا خشبيا يسميه مركزا أو وظيفة أو منصباً قيادياً ويجلس فوقه حتى يدعى أن ا قد اسبغ عليه مواهب وقدرات تفوق قدرات البشر وانبت له عقلا اضافيا يصدر به التعليمات فى كل مجالات الحياة وميادينها ويصدر به الأحكام التى تنال من مصاير ومقدورات العاملين تحت إمرته، والأدهى من ذلك أن نجد من بيننا أناسا يتهافتون عليه ويتسابقون على الفوز بمسح نعليه، ويسبغون عليه صفات

المجد والفروسية. ويجعلون من حصانه الخشبى حصانا اسطوريا يسابق الريح والسحاب، ويتقدمون الواحد بعد الآخر يحرقون له البخور، ويدقون الطبول، ويصنعون له عرسا زائفا باعتباره واحدا من اسياد هذه اللحظة وأبطالها الكبار، فيزداد الرجل انتفاخا وافتراء وطغيانا، ويظل يفتعل المعارك مع الضعفاء، لاختبار قوته وقدرته على الفتك والايذاء، ولا تستقيم له الحياة إلا بإذلال الآخرين وانتزاع الاعتراف بقدراته العجيبة الخارقة، الباطلة، الزائفة، وتقف أنت حائراً أمام هذا الرجل الأكذوبة الذى صنع له الناس حصانا اسطوريا بنفاقهم وتزلفهم. وتبحث فى دواوين الشعراء عن شيء يواسيك ويضئ بعضاً من ظلام هذه المحنة، فلا تجد سوى ذلك الشاعر الذى يتحدث عن نكد الدهر، وعن عدو ليس من صداقته بد، وليس لشراسته حد.. فتنظر إلى ظلك يائسا وتقفل الكتاب.

- ٩ -

لا أدرى مدى دقة القول وسلامته، الذى يرى أن البشرية عرفت خلال هذا القرن من الاكتشافات والانجازات

ما يوازى كل ما عرفته من انجازات خلال ملايين الأعوام التى سبقت هذا الزمان. إنه حتى وأن بدا قولاً مبالغا فيه، فهو يشير بطريقة مثيرة إلى ما أصابه أبناء هذا العصر من حظ وتوفيق.

لقد عاصرنا هذه الاختراعات وهى تفد إلى الوطن العربى، تتأخر قليلا ولكنها تأتى، حاملة معها اسبابا للدهشة والاستغراب والمفاجأة، كما جاءت تقدم لنا مناسبة للاحتفال والفرح عندما تعفينا من القيام بجهد عضلى شاق أو توفر لنا وقتا أو تقدم لنا تسلية ووسيلة لتزجية الفراغ. ولعل من عاش مثلى منذ أربعين عاما فى قرية بعيدة عن التمدن والعمران يدرك مدى وقع المفاجأة عندما تفتح القرية أبوابها على رياح العصر لتتدفق هذه الاختراعات واحدا وراء الآخر. وعندما كان مشهد سيارة تفد إلى القرية مشهداً يثير فضول الصغار والكبار إلى أن اصبحت السيارة بديلا لكل وسائل النقل القديمة التى بطل استعمالها الآن. ثم جاءت الكهرباء وكنا شهودا على مجيئها وعلى مجيء ذلك السيل من الاختراعات الذى يتبعها، اختراعات لم تعرف القرية فى تاريخها شبيها لها مثل المراوح الكهربائية والمواقد الكهربائية والثلاجات

التى تحفظ الطعام وتثير دهشة الامهات وفرحتهم وغير ذلك من أدوات الاستعمال اليومى. فكل واحد من هذه الاختراعات كان حدثا مثيرا فى حياة أهل القرية، وقبل ذلك كان دخول المذياع حدثاً، وآلة التصوير حدثاً. وآلة الطحن التى جعلت النساء يهجرن الرحى الحجرية حدثاً، وآلة التسجيل التى تنقل الكلام حدثاً، وكنا نأخذ هذه الآلات ونذهب إلى شيوخ القرية وعجائزها فنعيد عليهم الكلام الذى قالوه أو نقدم لهم الصور التى التقطناها لهم دون علمهم، فيستغفرون ا موقنين بأن هذه الاختراعات إنما هى من علامات القيامة التى سوف تقوم قريبا بإذن ا ثم دخلت السينما إلى القرية وجاء بعدها التلفاز والهاتف والفيديو وجاءت آلات التصوير المتحرك والمحاريث الآلية ودخلت البيت الريفى أجهزة وآلات والعاب حديثة تتكلم وتتحرك وتضحك وتبكى وكأنها صارت من أهل البيت. كنا أثناء ذلك قد تركنا القرى وانتقلنا إلى المدن الكبيرة فى بلادنا أو بلاد أخرى. ولكن ينبوع الدهشة لا يتوقف، نراقب الاكتشافات الطبية وبرامج غزو الفضاء وانتشار الأدمغة الاليكترونية، وما أضافه الإنسان من تطوير

على وسائل الاتصال والمواصلات ناهيك عما حققه من تفوق مهول فى وسائل الحرب والدفاع.

كل هذه الاختراعات عاصرناها منذ أول يوم جاءت فيه إلى بلادنا، واحدا وراء الآخر، وكأننا نجلس أمام صندوق الدنيا حيث تتوالى الصور واحدة تجر الأخرى، حاملة معها مقداراً من الدهشة ومقداراً من الفرح.

هل أقول الآن أننا فعلا أوفر حظا من الأجيال التى سبقتنا والتى لم تكن تحلم برؤية هذا كله، أم أقول إننا أوفر حظا من الأجيال التى جاءت بعدنا من فتية هذه الأيام ممن جاءوا إلى الدنيا فوجدوا أمامهم هذه الاختراعات وكأنها بدأت مع بداية الكون. هؤلاء الفتية الذين ولدوا فى الكهرباء وفوق اسرة المستشفيات وعادت بهم السيارات إلى بيوتهم بعد أن تحصنت أجسامهم بالامصال التى تقيهم الآفات والأمراض. وفتحوا أعينهم على كل ما يتيحه العصر من آلات وتسلية والعاب ووسائل اتصال ومواصلات وصحة وتعليم وعلاج، دون أن يثير ذلك دهشتهم أو استغرابهم أو يكون مناسبة للفرح أو الاحتفال، بل كثيرا ما نراهم يضجرون ويتذمرون بما بين ايديهم يريدون تجديده وتغييره لأنهم لا يدركون قيمته

ولا يعرفون كيف كانت الحياة تمضى بأهلهم الذين لم يعرفوا شيئا من هذه الاختراعات.

لقد توفرت لجيلنا فرصة أن يعرف عالم ما قبل هذه الاختراعات وما بعدها، عالما امتد ملايين الأعوام فشاهدناه وهو يرحل ويتوارى عن الأفق، وعالما جديدا ادركنا بدايته وعاصرنا انبلاج فجره، وتلك احدى المكرمات القليلة التى أصابها جيلنا، فوجب الاعتراف بهذه المكرمة والحديث عن هذه النعمة.

تدرك اليد اليمنى للإنسان أنها صاحبة الفضل الأول فى تعمير الدنيا، وهى تفعل ذلك بكرم وسخاء دون أن تنطق بكلمة واحدة من المن أو الشكوى، ولكنها فى لحظة تعب أو إعياء لم تجد حرجا من البوح لشقيقتها اليد اليسرى بما تحمله من عتاب لها ولوم على هذه "اللامبالاة" التى تعتمدها أسلوبا فى الحياة قائلة لها:

- لقد نفد صبرى يا أختاه، أتعب وأتعذب وأشقى بينما تغرقين أنت فى الكسل والبطالة والنوم، إذا كان غرسا أو

عزقا أو بناء فأنا الذى أقوم به، إذا كان عملا كتابيا مضنيا فاصابعى هى التى تمسك القلم، اسفح العرق والدم دون ان أجد منك عونا أو مساعدة حتى فى أكثر الأعمال يسرا وبساطة امسك الفرشاة وامسك الفأس، حتى إذا كان سلاما أو مصافحة اديت انا هذا الأمر، وإذا كان ضربا وحربا قمت به وحدى، ومنذ ان كان السلاح سيفا ورمحا كنت أنا الذى أحمله ولا زلت احمله حتى بعد أن اصبح قاذفات وصواريخ، ما هذا يا أختاه؟ إن الأكل ذاته لا بد أن أبذل جهدا فى إعداده وتناوله ليسرى فى عروقك دما ونضارة وصحة وعافية، إذا كان كسرا فهو لى، واذا كان جرحا فأنا التى تصاب بالجراح والكدمات، يتشقق جلدى وتنسلخ اصابعى وتذوب اظافرى وازداد خشونة وتشويها بينما تزدادين انت نعومة ورقة، لا تجيدين شيئا سوى ارتداء الخواتم والساعات والقفازات أو المشاركة فى اللعب أو الضحك والتصفيق والعناق، تعيشين متطفلة على أفضالى وتنعمين بخير لا تقدمين فى سبيله أدنى جهد أو عناء، انتهى فى الدنيا عصر العاطلين بالوراثة ومع ذلك بقيت انت الشيء الوحيد العاطل فى الدنيا، انتشرت افكار العدالة والمساواة والتكافؤ وانت غائبة عنها لا تابهين

بها، فاعذريني إذا قلت لك بأنني تعبت وما عدت أرضى بان يستمر هذا الوضع.

كان هذا الكلام مفاجأة لليد اليسرى، فهى لأول مرة تسمع من اختها كلاما جارحا كهذا الكلام، وتساءلت بينها وبين نفسها عن سبب هذه الثورة التى تنتاب يدا عاشرتها طويلا وعرفت كرم سجاياها وسماحة طبعها، وادركت أن هذا التبدل انما جاء من كثرة استماعها للاذاعات فهى التى تتولى فتح أجهزة الاذاعة وقفلها وهى التى تتولى تحريك المؤشر من محطة إلى أخرى وتلاحق الأخبار التى لا تنتهى من كارثة حتى تبدأ فى وصف كارثة أخرى مما جعلها ضيقة الصدر قليلة الصبر، ولكنها لن تستطيع أن تسكت على ما سمعته من اهانات ولابد أن تضع النقاط على الحروف، نقطة نقطة وحرفا حرفا.

- هل تاتين لقول هذا الكلام بعد عمر كامل من الولاء لك والاعتراف بسيادتك. انكرت ذاتى وتناسيت حقوقى وتنازلت عن كل دور فى الحياة وتركت لك الاضواء وانزويت فى الظل مهملة مهمشة لا دور لى ولا رسالة بعد أن استلمت انت كل الادوار، راضية بالقليل النادر الذى

تسمحين بالمشاركة فيه لا اقدم لك سوى التبجيل والتقدير والاحترام، أشاركك أفراحك وأتراحك، تضحكين فاضحك وتبكين فابكى وتتعبين فاتداعى بالسهر عليك، ويصيبك خدش أو جرح فأبقى مؤرقة طوال الليل، اقوم بتطبيبك وتضميدك، أقص لك أظافرك وأساعدك فى حمامك، واحاول برغم جهلى ان اتولى عنك ما كنت تقومين به من اعمال حتى تحققين الشفاء وتعودين إلى استلام كل المهمات. لقد عرف التاريخ حركات تمرد كثيرة قامت بها اليد اليسرى ضد هيمنة وسيطرة اليد اليمنى واستطاعت فى حالات كثيرة ازاحتها وتولى جميع المسئوليات بدلا منها ومع ذلك فاننى لم اقابل حركات التمرد هذه إلا بالاهمال والازدراء، حريصة على الاخلاص لك والاعتراف بفضلك ومهارتك والوفاء لما ربط بيننا من وشائج القربى والدم. فدعى عنك هذا الغضب واتركينا ننعم بالهدوء والسلام الذى يميز علاقتنا منذ بداية الخلق.

لم تكن اليد اليمنى غافلة عما فى حديث اختها من تحريف للحقائق، فهى لا تكتفى بان تبقى خاملة عاطلة، وانما تتباهى بهذا الخمول وتجعل من البطالة فضلا ومكرمة.

لم تقل شيئا. كان حديثها مجرد تعبير عن لحظة تعب ومعاناة، عادت بعدها إلى هدوئها وسماحة طبعها، فلديها اعمال كثيرة تنتظرها ورسالتها فى تعمير الكون لم تنته بعد.

- ١١ -

يبدو أن لا أحد بمنجاة من أمراض هذا العصر الا اذا كانت الاقدار قد منحته ضعفا فى الشعور وبلادة فى الاحساس يستعين بهما على مقاومة هذا الزمان، لان من ملك حسا طبيعياً وشعوراً سويا سوف يكون ضحية لأزمات لا تنتهى ولا تنفد نتيجة لهذه الحياة العصرية التى كثرت مطالبها وتعقدت اساليبها وصارت مشاكلها وهمومها تنهمر فوق رأس الانسان وكأنها المطر.

وإذا كان صاحب الحس البليد قادراً على ان يسمع الاهانة فلا يتأثر بها ويرى مشهدا على الشاشة يسئ لأهله فلا يعبأ به ويقرأ أو يسمع مسخا وتشويها للحقائق التى تتصل بحياته فلا يثير ذلك غضبه أو حنقه، ويتلقى تعلميات الدركى الذى يحكم الشارع الذى يقطنه فيمضى لتنفيذها دون احتجاج أو معارضة ودون تذمر أو شكوى، فان من ابتلته الاقدار

بحس طبيعى وتأثر بكل ما رأى فيه اساءة للذوق أو الشعور، وعبر عن ضجره من كل تصريح اجترأ على الحقوق والحرمات وكل اجراء انتهك الشرائع والقوانين، ومات كمدا ثم عاد إلى الحياة كلما رأى دركيا يصدر لأهل الشارع الأوامر والتعليمات، سيعيش طوال حياته ضحية الكوارث والأزمات مغنيا مع مطرب اللوعة والأسى :

"ليت يا يوم مولدي

كنت يوما بلا غـ ـد"

وهى أغنية كنت شخصيا أستغرب كيف أنها وجدت مؤلفا يكتب كلماتها وملحنا يلحنها ومطربا استطاع أن يغنيها، ثم جمهورا يتحمس لها ويصفق لكل ما تحمله من بؤس وإحساس بالعدمية والفناء، حتى كبرت ووعيت ورأيت الحكمة من وراء تأليفها وتلحينها وتصفيق الناس لها.

إن هذا الذى ابتلته الاقدار باحساس سليم سوف يجد نفسه أمام اختيارين لا ثالث لهما، الاختيار الأول هو أن يرفض الاذعان لأى خطأ يراه وان يقف معاندا صامدا ومحاربا وحيدا فريدا لكل طواحين الأرض والهواء مستعيرا اسلوب دون كيشوت الذى يخرج منذ الصباح شاهرا سيف

البطولة والاباء. وإذا لحقته اهانة مهما كان مصدرها بادر بالرد عليها، واذا سمع مذيعا يقول باطلا قذف بالمذياع من الشباك واضرب عن الاستماع إلى الاذاعات، واذا شاهد خطيبا يدعو الناس لغير الحق ذهب اليه وامسك بعنقه حتى يتوقف عن الكلام.

وهكذا يمضى فى الحياة شاهرا سيف الحق رافعا راية الرفض على كل القوى التى تنتهك حقوقه أو تبغى العبث بحياته أو تريد تسخيره لخدمة أهداف لا يؤمن بها. وهى مهمة تحتاج إلى جهد خارق وبشر يشبهون رجال الاساطير ممن نشاهدهم فى أشرطة السوبرمان، ولعل هناك رجالا ونساء يملكون هذه القدرة على الصمود والتحدى ولكنهم سرعان ما يدفعون الثمن ويذهبون ضحية ما يملأ العالم من ظلم وشرور.

وهذا هو الاختيار الأول الذى لا يقدر عليه إلا أفذاذ من بنى البشر. أما اذا كنت رجلا عاديا ينتمى إلى الاغلبية الساحقة من بنى الانسان فان الاختيار الوحيد الذى يبقى لك هو ان تسمع وترى وانت تتألم فى صمت وإذعان.

تغمض عينيك حينا، وتدير وجهك إلى الناحية الأخرى فى أغلب الأحيان، اذا رأيت زورا لا تقوى على رده طبقت فمك، واذا رأيت ظلما احتميت بالحائط كى لا يراك الظالمون، تسمع كلمة جارحة فتدعى انك لم تسمعها وترى فاسقا يعينونه حارسا للفضيلة فتبارك هذا الفاسق خوفا من بطشه وبأسه، ولكن هذا الاختيار بكل ما فيه من انتقاص من ادميتك وبكل ما يعنيه من مذلة وإذعان فهو لن يمنحك ما تريده من نجاة وامان، لانك سوف تكتشف ان كل ما كتمته من مشاعر الحنق والغضب وكل ما صبرت عليه من الم وضيم سوف يتحول إلى كوابيس تنقض عليك أثناء النوم وتحرمك من الراحة والهناء. ان كل ما خبأته فى قلبك من صرخات الاحتجاج والرفض قد تحول الان إلى كائنات كأنها جوارح الطير تنشب مخالبها فى صدرك وتصيبك بامراض الارق والقلق والانهيارات العصبية. وسوف تحسد أثناء ذلك كل انسان ابتلاه ا بثقل الذهن وضعف الشعور والتفكير، فعاش متجانسا مع الكوارث والازمات، يقضى ليله بمنأى عن هذه الكوابيس والامراض والهموم.

يتأسف المغنى الشعبى ويتألم لان ابن قريته "حمد" الذى ذاق خبز المدينة ما عاد باستطاعته ان يألف حياة البادية مرة أخرى.

إنه يقول :

"ناديت يا حمد هيه
فات الدكاكين غادي
ومن ذاق خبز المدينة ما عاد يألف أبادي !"

ولا أدرى ماذا سيقول هذا المغنى الشعبى عن المحنة التى يعيشها "حمد" آخر، ذاق خبز مدينة اخرى اكثر تقدما من مدينته فهجر مدينة اهله إلى مدينة الغرباء التى لا ترتفع فى سمائها المآذن والاهلة والتى يرتدى أناسها البرانيط ويرطنون بلغة غريبة مجهولة، اذ لم تعد محنة الوطن العربى هى فقط تلك المحنة القديمة التى جاءت بسبب "حمد" الذى هجر القرية والمحراث والزرع والحصاد بحثا عن العمل غفيرا بإحدى عمارات المدينة، انها الان محنة "حمد" الذى هجر الوطن كله إلى عواصم الغرب وبلاد التقدم الصناعى، بحثا عن رزق افضل وفرص اكبر لتحقيق التفوق والنجاح.

إن "حمد" هذه المرة ليس فلاحا بسيطا لا يجيد سوى عزق الارض كما هو الحال فى الهجرة السابقة، انه "حمد" الذى نال معرفة وتحصيلا علميا. "حمد" الذى انفق عليه المجتمع خلال مراحل التعليم كلها حتى تخرج مهندسا أو طبيبا أو عالما فى الفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات أو الالكترون. "حمد" الذى ابتهج المجتمع بتفوقه فأرسله على نفقته لمزيد من التحصيل والدراسة العالية فى جامعات الغرب، "حمد" الذى اخذ كثيرا، وتكلف تكوينه جهدا وعناء ومالا، وعندما حان موعد العطاء وسداد الديون وقف حائرا فى مفترق الطرق ممزق الولاءات بين العودة المحزنة إلى بلاده التى تعانى التخلف أو البقاء فى بلاد التقدم الصناعى التى تتيح امامه امكانيات اكبر لارضاء طموحه العلمى، واذا كان الكثيرون يقعون فى شرك الاغراء منذ البداية فان من بين هؤلاء الابناء المتفوقين الذين استوعبهم الغرب من اثر العودة إلى وطنه، لكنه ما ان باشر العمل هناك حتى اصطدم بالابواب المقفلة والطرق المسدودة التى تمنع عنه فرص التقدم والنجاح فعاد آسفا يمنح علمه وجهده لشركات ومؤسسات غربية.

أن الامر بحاجة إلى جهد عربى موحد لوضع صيغة جديدة للتعامل مع هذه الظاهرة التى باتت تهدد مستقبل الوطن العربى، ولعل "حمد" يرد هذه المرة النداء.

- ١٣ -

باعتبار أن الأمثال والتعابير الشعبية ليس لها مؤلف معروف، فان الكثير منها يبدو مثيرا للشبهات، إنها رسائل ترد الينا غفلا من الامضاء، ولابد ان نقف طويلا لكى نتأكد من حقيقة ما تقوله، ومهما تأكدنا من صدق محتواها فسوف يبقى فى نفوسنا ظل من الشك حول دوافع صاحبها، انها امثال تنسب إلى الشعب، وهذا بحد ذاته يثير اكبر قدر من الريبة والحذر، فلقد تعودنا ان نسبة الاشياء إلى الشعب غالبا ما تكون تغطية لتمرير شيء ضد مصلحة الشعب، ومن هنا جاء حذرى واحتراسى من كل شيء تتم نسبته إلى الشعب. وكثيرا ما وقفت امام مثل شعبى اعجبنى لكى ارسم فى ذهنى صورة لقائلة وابحث عن السر الذى جعله يخبئ نفسه ويطلق كلماته فى الهواء بحيث لا تنسب لأحد، فنأتى نحن فيما بعد وننسبها إلى الشعب، باعتباره ابا لمن لا أب له، اذ لعلنى بعد

ان اهتدى إلى تصور حوله استطيع ان اثق فى الحكمة أو الموعظة التى يقول بها المثل، وطالما توصلنا إلى ان الشعب مجرد تسميه لا تعنى شيئا وان هناك مؤلفا لهذا المثل أخفى نفسه لظروف لا نعرفها، فان وسيلتنا للاهتداء اليه لا يجب ان تختلف عن وسيلة المحقق الجنائى فى الاهتداء إلى مرتكب الجناية الذى ضاع وسط الزحام، أى بالسؤال عمن يكون صاحب المصلحة فى هذا القول، وبرغم ان مثل هذه التعبيرات تبدو وكأنها تتوخى المصلحة العامة الا ان قائلها لم يقلها إلا ابتغاء لمنفعة خاصة وراء هذا النفع العام، وليس ادل على ذلك من ان كل مثل أو تعبير من التعابير الشعبية سنجد له تعابير وامثال أخرى تنقضه وتتقاطع معه حتى لو كان هذا المثل تمجيدا لقيمة عظيمة مثل الكرم والشجاعة فسنجد عشرات الامثال الأخرى التى تحث على الحرص والتقتير والهروب وطلب السلامة، واذا اردت ان تتخذ من الامثال الشعبية دليلا تهتدى به فى رحلة العمر فقد اضعت طريقك واضعت عمرك لان هذه الامثال لم تنتج لمثل هذا الهدف، ولم تؤلف من اجل اعتمادها كدليل وحيد فى الحياة، لقد جاءت لخدمة اغراض أخرى، انها حقا تختزل تجارب

وخبرات وتنقل للناس جيلا وراء جيل حصاد وقائع واحداث، لكنها تجارب واحداث تتباين وتتناقض بتباين واختلاف المناخات والبيئات والظروف والمعطيات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى انتجتها، ولذلك فان هذا المثل الشعبى أو هذا القول الشائع انما يمثل لحظة قد تتماثل مع لحظة اخرى فى حياتنا فيصنع اضاءة ويقدم قدوة وعبرة، وقد لا يحدث هذا التماثل فيسقط المثل فوق الارض كأنه عصفور ميت.

- ١٤ -

عندما التقيت به كان قد ترك المنصب الكبير الذى تولاه بضعة أعوام وعاد مثلنا للجلوس على مقاهى الرصيف، ولا ادرى لماذا احسست أول لقائى به انه سيكون سعيدا بهذه العودة إلى عوالمه القديمة والالتقاء باصدقاء لا تفرضهم الالتزامات الرسمية وانما تجمعهم وشائج أكثر عمقا وأصالة من مجرد الزمالة أو الوظيفة، وانه سيعود إلى ذاته الحقيقية بعد أن تحرر من المظاهر والاقنعة التى تفرضها المناصب الكبيرة وما ينتج عنها من لقاءات بروتوكولية يذهب اليها

الانسان مرغما بحكم منصبه لا بدافع الرغبة أو الاختيار. لقد غاب زمنا عن اصدقائه الحقيقيين وأجوائه الحقيقية التى حالت بينه وبينها الهموم والمشاغل الوظيفية ولابد ان عودته إلى هذا المقهى ستكون بداية مرحلة جديدة فى حياته، أكثر انطلاقا وتحررا وعفوية واقرب إلى نفسه وسجيته.

ثم سرعان ما اكتشفت خطأ هذا الانطباع، فما ان جلست معه قليلا التلمس طريقى للاهتداء إلى ذلك الصديق القديم الذى عرفته قبل سنوات المنصب والنفوذ الحكومى، حتى اكتشفت انه قد ذاب فى الشخصية الأخرى ولم تبق منه الا اطلال واثار. وعندما تحدث كان حديثه متخاذلا، منكسرا، يائسا، كحديث تاجر فقد للتو مراكبه فى البحر، يكشف عن مدى المرارة التى يعانيها رجل صار يحس بأنه زائد عن الحاجة. لقد غادرته الاضواء وانفض من حوله المهرجان الذى يقام له صباح مساء وتنامى احساسه بالبطالة والعجز والفراغ، انتهت كلمات المجاملة وطوابير المتزلفين، وانتهى الزحام الذى يصنعه على باب مكتبه أو باب بيته اصحاب الحاجات، ذهبوا جميعا مع المنصب الزائل، ليواجه ذاته الحقيقية بلا دعم أو عون خارجى أو منصب يدافع عنه. لقد

ظل لبضع سنوات ينهل من موارد ذلك المنصب لتغذية ثقته بنفسه ويستمد منه عونا على تحقيق ذاته واعتراف المجتمع بشخصيته وكيانه. وها قد توقف ذلك المعين وعليه اليوم ان يعود إلى منابعه الخاصة لكى يستمد من موارده الذاتية ما يغذى ثقته بنفسه وقدراته على التواصل مع الدنيا خارج اطار الهالات التى تصنعها المناصب ومراكز الحكم والنفوذ.

ولكن صاحبنا لم يكن يملك الثراء النفسى الذى يتيح له هذا الترف، اذ انه ما ان وجد معينا ينهل منه حتى اهمل موارده الخاصة وامكاناته الذاتية وعندما اراد ان يعود اليها بعد ذهاب المنصب وجدها قد جفت وأمحلت، فبقى ضائعا، منكسرا، لا يعرف لنفسه هدفا فى الحياة.

واذا كان هناك اناس يحملون قيمتهم معهم اينما ذهبوا ويحتفظون بها قبل وأثناء وبعد اعتلاء الكراسى والمناصب، فان هناك اناسا آخرين يستمدون قيمتهم من قيمة المناصب التى يتولونها وما ان تنتهى مناصبهم حتى تنتهى كل قيمة يملكونها واذا بهم مثل عملة ورقية انتهى زمانها وتوقف الناس عن تداولها فما عادوا يساوون شيئا فى حساب انفسهم أو فى حساب الآخرين. لقد جنى عليهم المنصب الذى تركوه،

بمثل ما جنوا عليه عندما تولوه، واصبح الامر نوعا من المقايضة العادلة فى مجال الظلم والتجنى.

إنها ليست محنة هذا الرجل بقدر ما هى محنة مجتمعات بكاملها، مجتمعات لم تستطع ان تخلق تقاليد وقواعد واسسا لتولى المناصب والمواقع القيادية فتركت كل شيء للصدفة والاختيار العشوائى واضرت بنفسها بمثل ما اضرت بهؤلاء الناس الذين اولتهم مناصب لم يكونوا مؤهلين أو مستعدين لها.

- ١٥ -

تضمك جلسة ذات طابع حميمى مع زملاء واصدقاء، يزداد دفء الحديث وحرارته مع تتابع فناجين القهوة وامتلاء المنافض باعقاب السجاير، حديث يتناول شجونا وهموما ويلامس اوتار القلب بصدقه وعفويته، وتمتد خيوط الود والالفة بينك وبين الجالسين، تحس بان الدنيا ورغما عن الظروف الكالحة وقتامة الأجواء العامة ما تزال بخير طالما حوت مثل هؤلاء الاصدقاء.

وبرغم أنك أطلت الجلوس وحان منذ وقت مضى موعد عودتك إلى البيت الا انك لا تريد ان تترك جلسة تجلى فيها الود والصفاء، ولكن صديقا تضمه الجلسة كان اكثر قدرة منك على انتزاع نفسه من اغراء الحديث وسحر هذه الجلسة، يقف مستأذنا ويغادر المكان، وما ان يغيب خلف الباب حتى ينبرى احد الجالسين للتشنيع عليه والسخرية منه والتجريح فى شخصه وسلوكه، وتنظر باندهاش إلى هذا الرجل الذى كان منذ دقيقة مضت يكيل له الثناء ويعبر له عن عواطف المحبة والاخاء، غير مصدق ما تسمع وما ترى، ما الذى اصاب الدنيا حتى انشطر هذا الرجل إلى شطرين، يحب باحدهما صديقه ويحقد عليه بالشطر الثانى، كيف يجتمع الحب والحقد فى قلب انسان واحد تجاه انسان واحد. ينقشع عن عينيك وهم هذه اللحظات السرابية التى ظننتها مثالا لدفء العواطف وصدقها، ويتكشف لك زيف وهشاشة هذه العلاقات التى يغلفها الكذب والرياء، وتظهر امامك جميع التشوهات التى تملأ النفوس والقلوب جلية واضحة، ثمة هواء فاسد نتنفسه جميعا هو الذى يداهم الجلسات فيقضى على صفائها ويبدد سحرها، وما ان تظن

بأنك اهتديت إلى لحظة ذات بهجة وبهاء حتى تكتشف بعد دقيقة واحدة زيف هذه البهجة وهذا البهاء، وتحس بالاختناق نتيجة الهواء الفاسد الذى تسرب إلى الجلسة، انك لن تستطيع البقاء فى هذا المكان ولكنك ترغم نفسك ارغاما على البقاء حتى تنتهى الجلسة، ليس بدافع الاستمتاع بالحديث الذى صار كريها إلى نفسك، وانما بدافع الرعب من ان تكون انت ايضا ضحية تجريح وسخرية احد الجالسين فور ذهابك، لقد تبدد ذلك الهناء الذى احسست به منذ لحظات، وحل مكانه شعور بالقرف والاشمئزاز، صرت تدرك الآن أن ما يتبادله هؤلاء الأصدقاء من احاديث الود ليس الا رخصا وابتذلا وكذبا ونفاقا، وان هذا الكلام الناعم الجميل انما هو مظهر خادع لباطن يمتلئ ظلاما ومقتا. لماذا؟ تقول فى نفسك صارخا بصوت لا يسمعه أحد، لماذا تنبجس فجأة ومن قلب أجواء الألفة والصداقة نوافير البؤس والتعاسة والكراهية؟ لماذا يختفى الهواء النظيف ويتسلل الهواء الملوث إلى الأفواه والعيون والقلوب؟ لا شك ان الامر سيكون اكثر قابلية للفهم لو ان هذا الصديق ارجأ هجومه إلى يوم آخر واتاح مسافة للانتقال من النقيض إلى النقيض، عندها ستقول إن شيئا حدث

بينهما اوجب هذا العداء، وقد تجد لنفسك دوراً لرأب الصدع وتحقيق المصالحة بينهما. ولكن الرجل بدأ هجومه انطلاقا من جلسة ود جمعت بين الاثنين، فهو هجوم مجانى لا يبحث عن مبرر لنفسه ولا يرتكز إلى عداء أو خصومة. وكأنه بات أمراً مألوفا ان يتغذى الناس على لحوم اصدقائهم أو كأن هذا الصديق اصابه الندم لما ابداه من عواطف الود نحو صديقه ورأى فى ذلك ضعفا ومذلة، فأراد ان ينتقم لنفسه بشتمه وتجريحه بمجرد ان توارى خلف الباب. إنه سلوك يدل على المرض وغياب العافية النفسية ويظهر مدى ما اصاب العلاقات التى تجمع بين الناس من عطب وفساد، ان هذا الصديق ليس حالة فردية أو استثنائية، انه حالة عامة تتكرر جلسة وراء الاخرى، وهذه ليست الجلسة الأولى التى ترى فيها هذا السلوك، ولكنك لا تريد ان تقبل به أو تتعايش معه أو تعتبره قاعدة للتعامل بين الناس، ولهذا فانت فى كل جلسة تفاجأ به وتبدى استغرابك واستنكارك وتتمنى مرة اخرى انه مجرد حالة طارئة وانك ستشهد فيما يأتى من ايام جلسات بين الاصدقاء تثبت لك هذا الظن. ولكن انتظارك يطول دون فائدة أو جدوى، لقد بات هذا السلوك عاهة اجتماعية كغيره

من العاهات التى تأتى بها ازمنة البؤس والارتداد، ولا خلاص من هذه العلل والعاهات الا بان يتخذ التاريخ العربى منعطفا جديدا ويخرج بنا من هذا النفق الذى يمتلئ ظلاما ورطوبة إلى مشارف وآفاق أكثر اتساعا ورحابة، يغمرها ضوء الشمس ويغسلها الهواء المنعش النقى، كى تستعيد هذه النفوس التى اتعبها الظلام الصحة والعافية والامان.

- ١٦ -

- ابدأ بنفسك!

هكذا قلت بينى وبين نفسى مستعيرا اسلوب فارس من فرسان العصور الوسطى. جاءنى هذا التعبير عندما خطر على ذهنى موضوع الوقت واحترام المواعيد، فقد نما فى يقينى ان الأمم لا تتقدم الا بمقدار ما توليه من احترام للوقت، وان سر ضعف امتنا العربية انما يأتى من استهتارنا بالوقت واستهزائنا به، بالرغم من ان تراثنا كله يعنى بالوقت ويحض على احترام المواعيد. لقد تألمت وتأسفت لما وصل اليه حال امتنا، وكنت عضوا فى جوقة البكاء على امجاد الماضى والضجر والشكوى من احوال الوقت الحاضر والحسرة

والأسى للمستقبل الغامض، ثم قررت ان انتقل من مناطق الأسف والشكوى والأنين إلى مناطق العمل والمبادرة، ورغبة فى ان تبدأ هذا الأمة مرحلة الصعود والرقى واستعادة مجدها التليد قررت ان اطبق المثل الذى يقول :

- ابدأ بنفسك!

ومعنى ذلك اننى سألتزم بالوقت كل الالتزام ولن اتأخر دقيقة واحدة عن أى موعد احدده لأى انسان.

إننى اضع الآن اللبنة الأولى فى بناء حضارى سوف تشهده امتنا، انها خطوة صغيرة بالنسبة لانسان مثلى ولكنها خطوة عملاقة على طريق استعادة امجاد وقوة أمة بأكملها، فها هو مواطن عربى ينتمى إلى هذا العصر ويعانى مشاكل وهموم هذا الواقع يقرر ان يتحدى معطيات الواقع وان يرتفع فوق معاناته وهمومه، وأن يبدأ ودونما واعز من أحد إلا من رأيه وإرادته الحرة تنفيذ مواعيده بدقة الموازين، مهما كان الزحام على الطرقات شديدا ومهما كان سوء وسائل المواصلات، ومهما فاجأنا الطقس بتقلباته العجيبة فقد قررت ان أتحدى كل هذه الظروف والملابسات وان ابدأ مسيرتى لتصحيح التاريخ العربى واثبات ان بامكان مواطن ينتمى إلى

هذه الأمة ان يكون دقيقا فى مواعيده حريصا على وقته ووقت الآخرين قادرا على الوصول فى الموعد دون تقديم أو تأخير.

وصرت ما أن ألتزم بموعد حتى أفى به وأصل بالتمام والكمال، ولأن لكل موعد طرفين فقد كنت الطرف الوحيد الذى يحترم التزاماته، اذهب فلا أجد احدا ينتظرنى وانتظار فلا احد يأتى واذا أتى فهو يأتى متأخرا ساعة أو ساعتين واذا أتى مرة فهو لا يأتى مرات كثيرة اخرى، واكتشفت اننى اهدر وقتى فى حين اننى اردت احترامه، ليس الوقت فقط هو الذى صار يضيع منى وانما حياتى هى التى تضيع دونما هدف أو معنى، لقد تحولت حياتى إلى ساعات انتظار فوق الارصفة وعلى مقاعد المقاهى، ولا ادرى لماذا تصورت اننى ما ان ابدأ معركتى مع الوقت وتأكيد قيمته حتى اجد الناس قد جاءوا من ورائى وبدءوا هم ايضا يعترفون باهمية الوقت ويشعرون بمدى خطورته، لقد كنت ساذجا وعبيطا، وها قد وعيت الدرس وادركت ان المثل الذى يقول "ابدأ بنفسك" مجرد فخ أو مصيدة للايقاع بالسذج والمغفلين من أمثالى.

لعل من أكثر التجارب التى تمر بنا مرارة وأسى، هى تلك التجربة التى نكتشف خلالها أن صديقا احتفظنا له بمكانة خاصة فى قلوبنا وبادلناه الود لسنوات طويلة، أخل بواجب الصداقة واظهر سلوكا يتنكر للروابط التى تربط بيننا، وأبان عن جانب جديد فى نفسه لم نكن نعرفه من قبل.

ونقف متسائلين عما اذا كان هذا التبدل الذى طرأ على سلوكه مجرد حادث عارض أو انه شيء اصيل فى نفسه فلم نستطع ان نهتدى اليه برغم عشرة السنين الطوال. ونمنح هذا الصديق فرصة ثانية وثالثة إلى ان تتكشف أمام أعيننا تلك الحقيقة القاسية التى تثبت لنا أن هذا الانسان لم يعد جديراً بتلك المكانة التى رفعناه اليها عندما منحناه حبنا وأودعناه ثقتنا وانزلناه منزلة خاصة فى عقولنا وقلوبنا.

وليس معنى ذلك أن الصداقة حالة ثابتة وعلاقة دائمة الصفاء كيوم مشرق من ايام الربيع.

إن الاصدقاء يختلفون ويتخاصمون

وهم يغضبون من بعضهم البعض ثم يتراضون ويتسامحون.

ولكن أكثر تجارب الصداقة ألما وتعاسة وحزناً، عندما ندرك ذات لحظة كاشفة أن هذه الصداقة كانت خطأ منذ البداية، أو ننتبه فى لحظة متأخرة إلى ان هناك جانباً فى هذا الصديق أخفاه عنا زمناً طويلا ثم اظهره، فوجدنا اننا لا نستطيع قبوله أو التعايش معه ومثل هذه الجوانب غالبا ما يتم اكتشافها مند الأيام الأولى لمثل هذه العلاقات، ولذلك تكثر الصداقات الطارئة السريعة فى حياتنا، ولا نحتفظ فى النهاية الا بعدد محدود من الاصدقاء ممن تعرضت صداقتنا معهم لشتى الاختبارات وعلى مدى سنوات وسنوات فتأكدت وترسخت وصارت جزءا من الاركان التى نبنى عليها الأمان الذى تحتاجه حياتنا، ولذلك فان المصاب يكون فادحا وكبيرا عندما يصيب العطب إحدى هذه الصداقات القليلة التى توثقت وتعززت وازدادت رسوخاً مع مضى الأيام والأعوام.

ونتساءل غاضبين لماذا حدث الذى حدث؟ ولماذا لم نكتشف هذا الجانب فى صاحبنا منذ البداية؟ هل كان ما رأيناه وعرفناه واختبرناه فى هذا الصديق خداعاً كله، وتمويهاً كله،

استمر وتواصل كل هذه السنين؟ أم كنا مغمورين بحالة من الرضا التى تحجب العيوب وتخفى عن ابصارنا أوجه التقصير والقصور؟ أم ان هناك سببا آخر أكثر تعقيداً فى النفس البشرية لا نجد له تعليلاً أو تفسيراً؟ أم ترى أن النواميس التى تحكم الكون أكثر هشاشة وأقل احكاما مما كنا نظن؟

وهى أسئلة لا تنتظر جواباً، إنها تعبير عن الحيرة والدهشة التى تصيبنا بها العلاقات التى تتمزق بين ايدينا بقسوة ودونما هوادة أو رحمة.

إن الذى يحدث غالباً هو أننا نرسم لاصحابنا صورة ثابتة دون أن نضع حساباً لما يطرأ من تغيير على سلوك ومواقف الناس. واذا كانت بعض الشخصيات تنمو فتنمو معها مهاراتها وخبراتها ومواهبها بمثل ما تنمو آراؤها وافكارها وثقافتها، بحيث لا يدهشنا ان نجد صديقا نعرفه، يزداد علما أو نضجاً أو خبرة أو مهارة فإن هناك اناسا آخرين يكبرون فتكبر معهم عيوبهم وعاهاتهم النفسية التى كانت فى حالة ضمور أو كمون، وما اكثر الدين نلتقى بهم فى بداية حياتهم العملية فنجد الواحد منهم خجولا حيياً،

منطويا على نفسه، فنتقبله بهذه الخصال ونعامله على أساسها، ثم ما ان يكبر فى عمله أو ينمو مركزه الوظيفى أو الاجتماعى حتى تظهر له شخصية أخرى مخالفة لشخصيته الأولى، شخصية جديدة ذات طابع استعراضى عدوانى، يتناقض مع ما عرفناه فيه من خجل وحياء وانطواء ولكن هذه الخصال الجديدة التى تباغتنا وتصيبنا بالدهشة والاستغراب، ليست خصالاً جديدة عليه، لقد كانت منذ البداية جزء اً من تكوينه وبنائه النفسى، ولأنها لم تجد مجالاً للتعبير عن نفسها لجأت مقموعة إلى الحياء والخجل والانطواء، كدليل على عجز ذلك الشخص على التواصل مع الناس والحياة، ثم تفجرت فجأة معلنة عن حضورها بمجرد أن لاقت فضاء يتسع لها، وانتقلت من مرحلة ما يسميه علماء النفس "حالة الكمون" إلى مرحلة الظهور والتعبير عن وجودها.

ولذلك فإن هذا الصديق الذى اظهر لنا وجها آخر لا نريده ولا نعرفه، ليس دليلاً على أن خطأ أصاب الكون أو أن العالم فقد نواميسه وقوانينه، انه حالة يكثر أمثالها فى كل زمان وكل مكان.

كثيرا ما أقف مندهشا وانا أسمع فى المذياع أو اشاهد على الشاشة الصغيرة لاعب كرة أجنبيا يشرح رأيه للمعلقين الرياضيين الذين جاءوا بعد انتهاء المباراة يسألونه عن حادثة صغيرة وقعت أثناء اللعب، كأن يفسر لهم مثلا، لماذا ضربت الكرة عارضة المرمى.

وأراه يتحدث بتدفق وافاضة واسهاب عن الدوافع والاسباب التى جعلت الكرة تنحرف عن مسارها وتخطئ الهدف بعدد من المليمترات فتطيح بآمال فريقه الذى كان مؤهلا للفوز وتصيب بالصدمة الكروية عشرات الآلاف من جماهير ذلك الفريق مستفيضا فى شرح الظروف التى أدت إلى ذلك الخطأ، مقدما عرضا منهجيا تحليليا بمقدماته ونتائجه وكأنه يقدم اطروحة فلسفية، اقف مندهشا كيف استطاع هذا اللاعب ان يجعل من حدث بسيط هو اصطدام الكرة بعارضة المرمى، موضوعا لهذا الحديث الطويل المعزز بالأدلة والبراهين لكى تنقله الاذاعات وتنشره الصحف ويدرس لصغار اللاعبين فى الأندية ومراكز التدريب.

إننى شخصيا لا أستطيع أن افكر فى اكثر من كلمة أو كلمتين اجابة على سؤال كذاك السؤال، وعندما استعرض صور الرياضيين من ابطال الكرة فى بلادنا لا استطيع أن ارى بينهم من يجيد مثل هذا التفسير والتحليل. إن مجمل ما نسمعه منهم تعليقا على المباراة بأكملها هو كلمتان لا ثالث لهما، كأن يقول الواحد منهم أن اللعب كان جيدا، أو انه كان رديئا، دون أن تسعفه الذاكرة باكثر من ذلك، فهو يرى ان مهمته ان يلعب فيجيد اللعب، لا ان يتكلم فيجيد التعليق والتحليل، واتساءل من أين جاء هذا اللاعب الأجنبى بكل هذه الفصاحة والبراعة فى شرح الدوافع والأسباب وإنشاء منظومة من الملابسات والظروف التى أدت إلى هذا الحادث العرضى البسيط. انه ليس مثقفا كبيراً قادرا على الانشاء والتعبير، ولهجته لا تدل على انتماء إلى الطبقات الراقية ممن تصبح القدرة على التعبير عادة مكتسبة لديهم، ان لهجته الشعبية وكلماته الدارجة تدل على منبت متواضع وأصول شعبية فقيرة وثقافة بسيطة محدودة، ومع ذلك كان قادرا على تشريح كل دقائق وجزئيات هذا الحادث التفصيلى الصغير. ان الامر يتجاوز القدرة على التعبير والفصاحة فى الاسلوب،

انه ادراك، وهذا الادراك منشأة تربية يتساوى فيها الغنى والفقير، أبناء الطبقات العليا وابناء الطبقات الدنيا، تربية صارت حقا مكتسبا لابناء هذه البلاد الاجنبية.

إنها تربية لم تفسدها تلك الممارسات المتزمتة التى نعامل بها أطفالنا عندما نمنعهم حق التعبير عن انفسهم، ونطالبهم بالسكوت فى حضور الكبار، لم يفسدها اصرار الآباء والمعلمين واولياء الامور على ان يمتثل الطفل لتعليماتهم ويمتنع عن الكلام فى حضورهم، ولم تفسدها كلمات نرهب بها الاطفال مثل : اسكت يا ولد.

تربية لم تفسدها اساليب القمع والتسلط ومحق شخصية الطفل الذى نريده أن يكون نسخة منا، فلا يقول إلا بما نقوله، ولا يحب الا ما نحب، ولا يأكل أو يشرب الا وفق ما نرغب، تربية لم تفسدها بيئة ما تزال، برغم مرور أربعة عشر قرنا على نزول الرسالة المحمدية، تستعير مفاهيمها من عصور الظلام والعصبية فتمنع التفكير والتعبير والكلام ويتحول القمع إلى حلقة مفرغة بلا بداية ولا نهاية.

أنت تكره الزحام ولا تطيق ان تقف محشورا وسط طوابير الحشود البشرية التى ترتاد الاسواق وتملأ الارصفة وتتدافع أمام الدكاكين ومحطات الحافلات ومحلات الاكل السريع. ويبقى الخيار الآخر المفتوح امامك هو ان تتجه إلى الاماكن المعزولة الخالية فهى مازالت كثيرة فى عالمنا، طالما انك ولدت فى هذا العصر ولم تولد فى عصر يأتى بعد الف عام حيث يتضاعف سكان الأرض خمسين ضعفا ويسدون منافذ الدنيا ويملئون بحشودهم كل الفراغات. ولكنك بمثل ما تكره الزحام فأنت أيضا تكره الأماكن الخالية التى يهرب منها البشر، تتجنب المتاجر التى يزدحم امامها الزبائن بمثل ما تتجنب دخول المتاجر الخالية الكاسدة التى تمضغ العتمة والفراغ، تهرب من المطاعم والمقاهى والاندية والمسارح التى تمتد امامها الطوابير بمثل ما تكره المطاعم والمقاهى والمسارح والاندية الخاوية التى تقدم طعاما بائرا، وعروضا بائرة ينفر منها الجمهور.

وتكتشف انك انسان يعانى مأزقا ليس من السهل ان يجد له حلا، ان العالم لا يستطيع ان يضبط ايقاعه على ايقاعك ولا يستطيع ان يعيد صناعة مقاسه كى يلائم مقاسك،

ولا ان يمضى فى دورته حسب رغبتك وشهواتك، وعليك ان تعيد ترتيب ايقاعك بحيث يتمشى مع ايقاع العالم الذى حولك وان تجعل لنفسك مقاسا يتناسب مع مقاسه وان تبدل من طباعك لكى تنسجم مع طباع ساكنيه.

إنك لا تريد صمتا ولا تريد كلاما
لا تريد ازدحاما ولا تريد فراغا
لا تريد صخبا ولا تريد سلاما
فما الذى تريده إذن؟
عالما مفصلا على مقاسك؟

إنك تخطئ كثيرا فى تقويم نفسك اذا ظننت ان العالم سوف يهرع لتلبية طلباتك ويفصل اسواقه ومسارحه ومقاهيه على مقاس رغباتك، يجب ان تنسى دائما ما تريد وترضى بما تجد، والا لقيت نفسك منبوذا مطرودا تجلس وحيدا على حافة الدنيا.

هل تسمى ذلك تنازلا، ليكن. اذ كيف تستقيم الحياة بغير هذه التنازلات القليلة التى يقدمها كل واحد منا، ولكنك سأمت من هذه الكلمة التى تقابلك ليلا ونهارا، وكأن مسيرة

التنازلات لا تنتهى، تنازلات تتبعها تنازلات فلا يبقى شيء لاختيارك وارادتك ورغبتك.

ومنذ أن جئت إلى هذه الدنيا وجدت اشارت التوجيه الاجبارى تملأ من حولك الشوارع والطرقات، التزمت بالتعليمات واتبعت الاشارات وتنازلت عن حقك فى ارتياد الاماكن التى احتكروها لانفسهم والذهاب إلى المناطق التى منعوا دخولها على الذين لا يحملون ترخيصا منهم، لم تطلب هذا الترخيص ولم تسأل عنه فانت تعرف قدرك وتجلس دونه، فما الذى يريدونه منك طالما إنك لا تريد منهم شيئا ولا تطمع لتحقيق شيء سوى أن يتركوا اك حياتك الخاصة تتصرف بها بعيدا عنهم، تكره الليل أو تحب الظلام فهذا شأنك أنت وليس شأنهم، بمثل ما هو شأنك ان تكره الزحام أو تمقت العزلة والفراغ، فكيف يأتى بعد ذلك مندوبهم يطالبك بتقديم مزيد من التنازلات حتى فى ما يتعلق برغبات صغيرة لا تضر احدا ولا تخص انسانا غيرك، ولا تتطفل بها على شئون الآخرين أو تقترب بها من عوالمهم.

- ولكن لم تقل لنا لماذا تكره الزحام؟

يرتفع صوت بعيد من اعماقك يذكرك بجلسات التحقيق واسئلة المدعى العام، يلتبس عليك الامر ولا تعرف بماذا تجيب، فيقول المحقق :

- اليس هذا تعاليا واحتقارا لجموع الكادحين؟

ترتجف رعبا من هذه التهمة وتصرخ بصوت مخنوق تدفع عن نفسك هذه الادعاء الباطل.

- ما أنا إلا كادح مثلهم.

- ولكنك تحمل مثل غيرك من المثقفين رأسا أفسدته الأفكار المستوردة التى تهزأ بمظاهر الحياة الشعبية.

- إننى ارفض هذه التهمة واذا كنت اكره الزحام فانا ايضا اكره الانزواء فى الاماكن الفارغة، الخالية من الناس.

- ولماذا تكره الأماكن الخالية؟

مرة أخرى لا تعرف بماذا تجيب متمنيا لو ان اللغة خلت من كلمة "لماذا" التى لا يجد المحققون كلمة غيرها يرمون بها فى وجوهنا وينسجون لنا بها الاتهامات.

يتولى المحقق الاجابة بالنيابة عنك قائلا:

- لعلك تحن إلى عهد ادباء الصالونات الدين يترفعون عن ابناء الشعب ويختلون بانفسهم يشككون فى المنجزات

والمكتسبات ويلوكون كلاما فارغا عن الديمقراطية المفقودة والعدالة الغائبة.

وتكتشف ان كل كلمة تقولها سوف تتحول إلى شرك منصوب امامك يوقعك فى تهمة اكثر خطورة. تلوذ بالصمت فلا يجد المحقق ما يفسر به صمتك سوى انه دليل اعترافك بالتهمة.

- ٢٠ -

تدور الارض حول محورها وتقترب من الشمس ثم تبتعد عنها، تنفض عن نفسها عاما وتستقبل عاما جديدا، فما الذى يتغير فى الدنيا، نستبدل أجندة بأخرى ونمزق اوراقاً ملأتها التهميشات والخربشات والمواعيد والعناوين وارقام الهواتف باوراق اخرى نظيفة بيضاء لاستعمالها أثناء العام الجديد. اناس يأتون واناس يذهبون. عام يمضى وعام آخر يجئ. بمثل ما ذهبت اعوام كثيرة خلفتها اعوام أخرى ثم ذهبت لتلحق بالازمنة الضائعة بعد ان سلخت من اعمارنا عاما واضافت إلى وجوهنا بعض الظلال وإلى رؤوسنا بعض البياض، وبين العام الذى يمضى والآخر الذى يجئ

نقتطع مساحة صغيرة للفرح. احتفالات نقيمها للسنة الجدية وكأننا نريد ان نكسب ودها ونتقى شرها ونأمن غدرها وخداعها، لعبة نكررها كل عام، نكررها مع كل سنة جديدة قادمة الينا من وراء سجف الغيب والظلام، فنكتب لها البطاقات التى تشبه التعاويذ، ونرسم التصاوير ونطلق عليها اجمل الالقاب فنسميها "سنة جديدة سعيدة" بحثا عن الامان وجلبا للفال الطيب، ولكن هل تراها تقيم اعتبارا لهذه الاحتفالات والاناشيد والاغانى والتعاويذ والبطاقات التى تشبه الاحجبة، هل تنصت لهذه الامانى والابتهالات فتكون اكثر رفقا بنا من سابقاتها واكثر عددا وانصافا فى تعاملها معنا؟ ونجدها احيانا مناسبة لان نجلس كى نحاسب انفسنا، نتأمل ما مضى من حياتنا، نضع كشفا بالاشياء التى اردنا تحقيقها والاعمال التى خططنا لانجازها، ونضع برنامجا جديدا لانفسنا خلال العام الجديد نتعهد فيه بانجاز مالم نستطع انجازه خلال العام الذى مضى، انها محاولة نقوم بها لاثبات اننا نستطيع ان نواجه السنة الجديدة بقوة. نخضعها لارادتنا ونفرض سيطرتنا عليها، نستخدمها بدلا من ان تستخدمنا، نحدد لها طريقا ومسارا بدلا من ان تحدد لنا الطريق والمسار

وتقودنا إلى حيث تريد، نريد ان نبقى زمام المبادرة بايدينا لا بيدها، انها لعبة اخرى نقوم بها، ولكنها لعبة اكثر فائدة وجدوى من مجرد الاحتفال والابتهال والتمنى، إذ يكفى اننا جئنا للسنة الجديدة نحمل برنامجا معنا، وخارطة نهتدى بها فى تعاملنا معها. برنامج قد نفشل فى تحقيقه وعندها سنقوم بترحيله إلى سنة اخرى كما فعلنا مع سنوات مضت طالما ان الاقدار امهلتنا حتى عبرنا من سنة إلى اخرى.

عام مضى وعام آخر يجئ.

وستظل امنيات سقتها للعام الذى مضى هى ذات الامنيات التى اسوقها للعام الجديد سائلا ا ان يجعله عام عهد جديد نبدأه مع انفسنا، وندرك خلاله قيمتنا ومكانة امتنا من العصر والتاريخ. ان اكبر مصائبنا هو اننا لا نعرف قيمة انفسنا وقيمة ما حبانا ا به من قوة وامكانيات وموارد ومواقع لو اجتمعت لقلبت كل الموازين ولاعادت صياغة تاريخ الدنيا وتاريخنا.

((ِإن الله لا يغَير ما ِبقَومٍ حتى يغَيروا ما ِبأَنْفُسِهم))
(الرعد : من الآية ١١)، هكذا يقول ا سبحانه وتعالى فى

كتابه الجليل، فهل سيكون هذا العام هو عام التغيير الذى يلحق بالنفوس فيصنع تغييرا فى المصائر والمقدرات.

هل سيكون عام المضى نحو قوة جديدة تظهر فوق الارض.

إن الأفق مليء بالاشارات التى تنبئ بقرب هذا اليوم.

فلنبتهل إلى ا   الا يكون ما نراه حلما كاذبا.

- ٢١ -

لعلك لا ترى موجبا لكل هذا الصخب والضجيج الذى يرافق العام الجديد، فالزمن يمضى كالنهر الذى لا يعرف الحواجز والفواصل، وما هذه الاعوام والارقام الا علامات نحن الذين صنعناها ليسهل علينا التعامل مع هذا الزمن الذى يمضى متدفقا فى مساره بين الازل والابد. وترقب تزاحم الناس على الاسواق فلا ترى فى ذلك سوى حيلة يلجأ اليها التجار لترويج بضائعهم، يضعون الزينات والاشرطة الملونة وندف القطن التى تشبه الثلج لاغراء الناس بالشراء وانفاق نقودهم ومدخراتهم على هذه البضائع.

ولكن الناس من حقهم اختلاق مناسبات للفرح، من حقهم انتزاع هذه اللحظات من بين مشاغل العمل والتسابق اليومى من أجل الرزق، لحظات يصرفونها فى الاحتفال والالتقاء بالاهل والاصدقاء، يتبادلون خلالها التهانى والامنيات العذاب ويعودون بعد ذلك إلى مشاغلهم واعمالهم وطواحين الحياة الرتيبة المكرورة التى تطحنهم، ليكن ذلك تمويها وخداعا للنفوس، ليكن لعبا أو عبثا أو دعابة اذا اردنا ان ننعته بهذه النعوت، فان من حق الانسان الذى يعيش اغلب ايام حياته وسط دوامات العمل والمشاغل والهموم ان ينفلت قليلا من هذا الاسر، لاهيا، عابثا، باحثا عن شيء من التسلية والترفيه البريء، يصنع الكرنفالات المضحكة، ويقيم افراحا واعراسا لوجه الفرح، ويسهر ليلة رأس السنة ضاحكا من نفسه ومن الآخرين.

العالم ملئ بالكوارث والفواجع، ملئ بالاحزان والدموع، ملئ بالحروب والمجاعات والازمات الاقتصادية، كل هذا صحيح، ولكن إرادة الحياة فى الانسان تبقى اكبر من كل هذه الكوارث والمآسى، ان كل مصائب الدنيا لا يجب ان تصادر حقه فى الفرح، حقه فى ان يرى الجانب المضيء

والمشرق من الحياة، لأنه بهذا الزاد وحده، بهذه الطاقة الدافعة للحياة يستطيع أن ينتصر على مشاكله وأزماته، يستطيع ان يهزم الضعف الذى فى نفسه، ويستطيع ان يصنع بالتالى عالما بشروط اكثر انصافا، وبيئة تليق بحياة وكرامة الانسان.

إن مجيء عام جديد ليس الا ذريعة لاقامة هذه الاحتفالات، ذريعة لتوليد هذه الطاقة الكامنة فى النفوس واستحضارها لمعانقة الحياة.

إن هذه الاحتفالات ليست الا دليلا على شهية الحياة النى نملكها والتى يمكن ان نواجه بها العقم والموت ونصنع بها قوة ننتصر بها على كل عوامل الفساد والخراب التى تهدد عالمنا وبيئتنا.

العالم ليس مشهدا واحدا لا يتغيرا، وبين مشاهده الكثيرة، المبهجة والمحزنة، ثمة مشهد يفرض نفسه مع مطلع العام الجديد، مشهد رجل يمضى وعلى فمه اغنية، وفى يده وردة يقدمها إلى حبيبته، مشهد يعيد ثقتنا بالحياة ويبعث فى صدورنا الامل بقدرة الانسان على ان ينتصر على ضعفه،

ينسى ضغائنه واحقاده ويصنع بيئة جديدة عامرة بالخير والحب والغناء والورود.

- ٢٢ -

المضيف الاجنبى الذى يسألك كم ملعقة من السكر يضع لك فى فنجان الشاى لا يستطيع ان يفهم حيرتك وانت تتلعثم وتصمت لحظات للتفكير وكأنك تشرب شايا لاول مرة فى حياتك. انه يريدك ان تتخذ قرارا سريعا وخطيرا كهذا القرار دون الرجوع إلى ابيك الذى كان يتخذ القرارات بالنيابة عنك ودون عون من شيخ القبيلة الذى تعود بعد ذلك ان يسقيك الشاى حسب ذوقه وخبرته، ولكن ها أنت الآن تخرج إلى العالم الواسع بعيدا عن وصاية الاب وشيخ القبيلة وعليك ان تتخذ قرارا حاسما سريعا دون عون منهما، مستعينا فقط برأيك الخاص وما اختزنته الذاكرة من معارف وخبرات، انها ورطة كبيرة لم تكن تعمل لها حسابا، فالذاكرة هى الاخرى لا تستطيع ان تسعفك بحل سريع لهذا الموقف المتأزم، ان الذاكرة تعرف انك شربت الشاى حلوا وشربته مرا وشربته معتدلا، فليس لديها الآن مرجعية ثابتة تستطيع

ان تعود اليها وتستمد منها رأيا يعينك، لقد رأتك وانت مازلت طفلا تبحث عن قطعة سكر خبأها فى أحد الدواليب فلم تجدها وشربت شايك مرا، ورأتك فى مرة اخرى وقد وجدت طبق السكر الذى خبأه عنك فوضعته كله فى فنجان الشاى تشربه قويا ومعقودا ومتخترا فى المجالس التى يحضرها رجال القرية الكبار لانهم هكذا ارادوه، وشربته خفيفا وناعما ومخلوطا بالنعناع فى افراح واعراس، تشربه دائما كما يقدمونه لك، تشربه دون ان يسألك احد كيف تريده وتحبه، تشربه بحسب مقتضيات الحال وما تملى به المناسبات، يقدمونه لك مرا فتشربه، حلوا فتشربه، اسود أو اخضر أو ورديا فتشربه، مصحوبا باللوز أو الفول السودانى تشربه، بالحليب أو بلا حليب تشربه، مخلوطا بالقرفة أو مخلوطا بالنعناع أو بالشيح أو بالزعتر تشربه، دون ان يخطر ببالك ان انسانا سوف يفاجئك ذات يوم قائلا كم ملعقة من السكر تريد. تنظر اليه مندهشا وهو يحمل فى يده ملعقة السكر ويبادلك اندهاشا اكبر من اندهاشك، ما الذى يريده هذا الرجل بسؤال غريب كهذا، لعله يقول سؤاله هازلا أو ضاحكا أو ساخراً أو عابثا، فمن اين لك ان تعرف كم ملعقة من السكر

تريد. لماذا لا يضع سكرا بحسب ما اتفق بدلا من ان يرمى بك وسط هذه المواجهة المحرجة؟ ولكن الرجل يأبى ان يفعل شيئا قبل أن يسمع جوابا منك، ولا تجد سبيلا للخلاص من هذا الحرج الا برد جزافى، تتذكر ازمات السكر فى بيتكم عندما كنت طفلا وتطلب من باب اللياقة ملعقة واحدة، وترى ان الطبق عامر بالسكر فيثير الأمر شهيتك للمزيد وتطالب بملعقة ثانية وثالثة ثم تستدرك عندما ترى حجم الفنجان الصغير وتسأله ان يتوقف عن وضع الملعقة الثالثة. وينتهى الموقف بعد ان تأزمت الاجواء بينكما، ان هذا الصديق الذى جئت لعقد اتفاق تجارى معه بات الآن اكثر ريبة وشكا فى التعامل مع رجل مثلك لا يثبت على رأى ولا يعرف ما يريد حتى مع ملاعق السكر.

لقد شربت الشاى حلوا بأكثر مما يجب، ولكنك خرجت من هذا اللقاء وطعم المرارة على لسانك بأكثر مما يجب.

- ٢٣ -

وقفت حائرا لا أدرى ان كان من واجبى ان اغبط هؤلاء الناس أو ارثى لهم لأنهم يعزلون انفسهم عن الدنيا ولا

يأبهون بما يحدث خارج اسوار المحيط الصغير الذى يضمهم، كان خبر الزلازل التى اودت بحياة عشرات الآلاف من الناس فى ارمينيا يهز الدنيا ويملأ بأخباره الصحف والاذاعات.

ولكننى وجدت أن هؤلاء الأقارب والاصدقاء الذين ذهبت لزيارتهم بإحدى المزارع خارج المدينة لا يعرفون شيئا من أمر هذه الكارثة، كنت قد ذهبت وأنا أحمل فى نفسى أسى عميقا لما حدث، وتوقعت أن أجد لدى الآخرين مثل هذا الأسى، ولا أدرى إن كنت قد ذكرت شيئا حول هذه الكارثة فأهمل الآخرون سماعه، أو أننى عزفت عن الكلام عندما لم أجد أحدا يأتى على اخبارها أو يذكر انه سمع أو قرأ أو شاهد على الشاشة شيئا حولها، مضى النهار دون ان اجد احدا يهتم بالموضوع ويشاركنى ذلك الأسى، وعندما عدت من هذه الزيارة كنت معجبا بهذا النوع من الحياة التى يعيشها بعض الناس، معجبا بقدرتهم على الاكتفاء بانفسهم والاستغناء عن الدنيا والاحتماء باسوار عزلتهم وقفل ابوابهم عن مصائب وكوارث العالم الخارجى، وبرغم ما نقوله عن العالم الذى صار صغيرا بفضل ثورة الاتصال والمواصلات حتى اصبح

كأنه قرية واحدة، فان هؤلاء الناس انعزلوا عن العالم الصغير وسط عالم اكثر خصوصية داخل تلك المزرعة، واقفلوا كل الشبابيك والابواب التى يمكن ان تتسرب منها اخبار العالم لتكون مصدر كدر وازعاج لهم، وكأنهم يقولون للدنيا انه يكفى ما نجده من متاعب فى حياتنا ولا حاجة بنا لمزيد من الهموم والمتاعب تأتى الينا من العالم الخارجى، اننا لا نريد ان نطارد اخباره ولا نريد لاخباره ان تطاردنا، لقد تركناه فى سلام فليتركنا هذا العالم فى سلام نحن ايضا.

هذا هو بلا شك منطقهم، ولكننى لا أرتاح كل الارتياح لهذا المنطق، اننى بكل ما احسست بع من أسى نتيجة متابعتى لأخبار هذه الكارثة التى ضربت ركنا قصيا من العالم، أشعر بأننى أكثر رضا على نفسى من هؤلاء الذين لا يعبئون بأخبار الدنيا، أننى أحس بأننى شريك فى هذا العالم، وهذه الشراكة بمثل ما تجلب الحزن احيانا فهى تجلب الغبطة والسعادة احيانا اخرى، وفوق هذا وذاك فهى تؤكد انتمائى للأسرة البشرية، وتجعلنى احس بالروابط التى تربطنى بكل هؤلاء الناس الذين يعيشون على هذا الكوكب. اعرف ان لهؤلاء الاقارب والاصدقاء اغناما وحيوانات فى المزرعة

تخدمهم وتسليهم ولكن عشرة الماعز والاغنام لا تغنى عن هذه الوشائج الجميلة التى تربطنا بالناس والحياة، ونكتشف من خلال هذه العلاقة ان اولئك الناس الذين يقيمون بأقصى اطراف الكرة الارضية يهمنا امرهم بمثل ما يهمهم امرنا، نتقاسم معهم الفرح والحزن ونتشارك فى الاخبار المبهجة والاخبار المؤسفة، واشعر بان هؤلاء الذين عزلوا انفسهم عن الدنيا قد حرموا من هذه النعمة، نعمة التفاعل مع نبض الحياة فى عصرهم وعالمهم والتواصل مع الاسرة البشرية الكبيرة من حولهم، سلبا وايجابا، فرحا وحزنا، اننى لا استطيع ان انام قبل ان اسمع نشرة الاخبار ولا استطيع ان ابدأ يومى قبل أن اقرأ صحيفة الصباح، وكأن هناك علاقة شخصية تربطنى بهذه الاحداث والاخبار. اننى لا أفعل ذلك حرفة، ولا أفعله مباهاة، وانما أفعله لأن حياتى ستكون فقيرة مملة بدون هذه المشاركة التى تكسبنى معرفة بنفسى والعالم الذى حولى وتضيف إلى حياتى ثراء وعمقا.

إن البشرية لم تبتكر هذه الاختراعات وتبدع هذه الوسائل الإعلامية إلا لأنها تلبى حاجة أساسية لدى البشر لمعرفة انفسهم وترضى فضولا انسانيا لمعرفة بعضهم

البعض، لذلك فان هؤلاء الناس الذين يعيشون معنا وكأنهم يعيشون فى اكثر العصور بدائية، يظلمون انفسهم ويحرمونها نعمة الانتفاع باكثر منجزات الحضارة انسانية وأصالة ونبلا.

- ٢٤ -

جاء آخر الليل وحان موعد النوم وهجعت إلى فراشك تضع رأسك على الوسادة وتغمض عينيك تنتظر اطياف النعاس كى تأتى وتداعب جفنيك، لقد اجهدت نفسك اجهاداً كبيرا هذا النهار ولا تنتظر مكافأة أجمل وأروع من هذا السلام الذى يأتى مع النوم وغيبوبته الجميلة، ولكن النوم يأبى أن يكون خادما تستدعيه متى تشاء وتطرده حين تريد، فهو الآن فى هذه اللحظات التى تطالبه فيها بأن يأتى لاسعافك من الجهد والعناء والأرق يرفض باصرار أن يأتى، تتقلب شمالا ويمينا، تستيقظ فى رأسك ذكريات النهار جالبة معها ذكريات نهارات أخرى، تحاول ان تطرد هذه الهواجس والافكار والذكريات استعدادا للرحيل إلى عالم الاحلام، ولكن النوم لا يأتى، لعل هذا المذياع الذى يبث الاخبار والتعليقات بجوار رأسك دخلا فى الموضوع، تطرد مذيع الاخبار وتبحث عن

محطة ترسل الغناء والموسيقى ومطرب يناجى الليل ويحاوره، تحاول ان تبقى معه ولكن عقلك ينسى الغناء ويذهب فى جولة أخرى مستحضرا هموم النهار. لقد استطعت اسكات مذيع الاخبار ولكن كيف تستطيع ان تسكت هذا المذيع الآخر الذى انشأ محطة فى رأسك وصار يرسل بثه دون حسيب أو رقيب، لا شيء يستطيع اسكاته سوى النوم ولكن النوم يعقد اتفاقية عدم اعتداء بينه وبين هذا المذيع فهو يأبى أن يأتى طالما ظل المذيع ساهرا، تحاول ان تصرف ذهنك عما يقوله المذيع وتبحث عن شيء آخر اكثر عذوبة وجمالا مر بك فى حياتك، فالنوم عادة لا يطيق ان يراك تفكر بالأشياء الجميلة المبهجة وما ان يراك تفعل ذلك حتى يتدخل لحرمانك من هذه المتعة، انك تعرف هذه الحيلة التى استعملتها مرارا وجاءت بافضل النتائج، ولكن صوت المذيع الداخلى يزداد صخبا وارتفاعا ويغطى على أية أمنية لذيذة تمر بخاطرك، انك لا تتعاطى الحبوب المنومة ولا تريد ان تتعاطاها مهما تكرر معك الأرق، فانت ترفض ان تعامل نفسك كمريض يحتاج إلى الحبوب والمهدئات، تنتهى الموسيقى وتأتى حصة الاخبار التى سمعتها للمرة الثالثة أو

الرابعة، تطفئ المذياع، ولكن الصمت اكثر عذابا وقسوة، تتحمل العذاب وتبدأ باستخدام لعبة عبثية هى حسبة الارقام وعدها، لعبة لا هدف منها سوى طرد الهواجس والافكار والذكريات التى تعرقل مجيء النوم، تصل فى عدك إلى ارقام فلكية دون فائدة، تتصور ان للنوم سلطاناً فتتجه اليه متوسلا مستجديا عطفه ورحمته، متسائلا عن سر هذا العقاب الذى ينزله بك، لانك لا تستطيع ان تهتدى إلى سبب معقول يبرر هذا العقاب. فانت رجل كادح مجد فى عملك من مشرق الشمس إلى مغيبها، وضمنت لنفسك عيشا كريما وحياة مستورة فلا ديون ولا خصومات ولا عداوات يمكن ان تصرف عنك النوم، ومع هذا تجهد نفسك فى البحث عن سبب تستحق من أجله العقاب، لعل هذا السلطان رآك تفعل شيئا لم يرق له فاغضبه ذلك منك، لعله رآك تقول كلاما لا تعنيه، وتقوم باعمال لا تؤمن بها، ورآك تمضى فى الحياة مهادنا ومداهناً الآخرين تحاول فى خبث ان تنفذ من الفخاخ المنصوبة فى كل مكان، ورأى فى ذلك سببا تستحق من اجله العقاب، انك فعلا تفعل ذلك، تفعله لا لأنك تحبه أو تريده وانما تفعله مرغما ومجبرا عليه بعد ان صار أسلوبا يعتمده

الناس فى حياتهم، فلماذا يحاسبك سلطان النوم ولا يحاسب الآخرين الذين فرضوا عليك هذا السلوك، لماذا يأتى ليطالبك بتسديد فواتير لم تكن انت المسئول عنها ويجعلك ضحية وحيدة لعقابه، وتكتشف ان فى الأمر مؤامرة دبرت بليل وان سلطان النوم يتواطأ ضدك مع سلاطين الدنيا، وتتخذ قرارا حاسما لا يقبل النقض بأن تبدأ من الغد استخدام الحبوب المنومة انتقاما من كل سلاطين الليل والنهار.

- ٢٥ -

يحتاج الأمر إلى قوة إدراك عظيمة حتى نستطيع أن نهتدى إلى اللحظات السعيدة فى حياتنا لنقول اننا الآن نعيش تلك اللحظات لأن الذى يحدث دائما هو اننا نعجز عن إدراك تلك اللحظات عند حدوثها، نتركها إلى أن تمضى وتزول.

وما إن تغيب عنا وتختفى من حياتنا حتى نلتفت اليها بحنين وحسرة قائلين بان تلك اللحظات أو تلك الايام كانت لحظات أو اياما سعيدة هانئة.

ولا أدرى ما إذا كان بإمكان الواحد منا ان يأخذ عبرة وعظة من مثل هذه التجارب والخبرات التى تمر به وينتبه

إلى تلك اللحظات التى تعبر فى حياته حتى إذا التقى بتلك اللحظات السعيدة الهانئة امسك بها وتوقف عندها قائلا ما قاله لها فاوست :

- قفى حيث أنت، أيتها الجميلة، رائعة الجمال !

إنها لن تتوقف بطبيعة الحال، فهى سوف تمضى فى رحلتها مع الزمن الذى ينبع من منابع الأزل ليصب فى محيطات الابد، ولكنه سوف لن يحس الخديعة والخذلان لأنه حين جاءت تلك اللحظة لم يكن مشغولا عنها بقراءة الصحف ومشاهدة التلفاز مدركا انها الان بين يديه تؤانسه وتمنحه اندر لحظات العمر وتكون الفضيلة الوحيدة فى مثل هذه المناسبات اننا اهتدينا إلى هذه اللحظة النادرة وادركناها عند مجيئها واحتفلنا بوجودها قريبا منا وتبادلنا معها نخب الصداقة والمحبة، حتى لو كان وجودا عابرا وقصيرا، فلا مجال بعد ذلك لأن نتحسر ونتألم بحجة انها مرت بنا دون ان نتعرف عليها أو نملأ ايدينا من ضيائها الجميل.

إن مشكلتنا مع مثل هذه اللحظات، انها تأتى دون تمهيد أو استئذان ولا تحدث صخبا أو ضجيجا ينبهنا اليها. انها مثل الريح الهادئة اللينة التى تعبر بنا دون أن تشعرنا بوجودها

وبعكس الفواجع والمشاكل التى تأتى بعواصفها وزوابعها فتهدم الاسوار وتطيح بالاشجار وترغمنا على ان نستيقظ من نومنا لكى نواجه نتائجها.

تأمل جيدا هذه اللحظة التى تعيشها الآن، فلعلها لحظة نادرة من تلك اللحظات الهانئة السعيدة الجميلة.

لا تدعها تمر دون أن تصافحها وتأخذ صورة تذكارية معها، فهى ستبقى زادا يعينك على عبور الأيام القاسية المضنية.

- ٢٦ -

تتصور مشهد طبيب جراح يتعامل دون وجل أو خوف بمشرطه ومبضعه مع رؤوس الناس وقلوبهم واجسادهم، أو قاض يجلس للقضاء ويتصدى فى ثقة وثبات لاصدار الاحكام عليهم بالادانة أو البراءة، بالسجن أو الموت أو الحرية، وقائد عسكرى يدير برباطة جأش وقوة اعصاب المعارك العسكرية ويصدر أوامر الموت.

فتتساءل بينك وبين نفسك من أين يستمد اصحاب هذه المهن قواهم الخارقة القادرة على التعامل بمصاير البشر

وارواحهم، ثم يذهبون مثلنا بعد ذلك إلى الاسواق، ويجلسون فى المقاهى، ويرتادون الاماكن العامة، ويتأسفون لغلاء اسعار الخضار وزحمة الحافلات العامة، بعد ان تخلوا عن أرديتهم التى ارتدوها وصنعت منهم بشرا اكبر من البشر. وتتصور نفسك فى موقف واحد من هؤلاء، وامامك اناس ينتظرون على يديك الخلاص أو يخشون الهلاك وان حياتهم أو مستقبلهم معلق بكلمة منك، فتصاب برعشة تملأ اطرافك وتبعد عن ذهنك هذا الخاطر الذى ارعبك، فانت لا تستطيع ان تتصور نفسك فى مكانهم، بل انت لا تستطيع ان تتصور نفسك شاهدا يرى وينظر إلى هذا الجراح وهو يفتح القلوب أو الرؤوس، انك تعرف ان الحياة تحتاج اليهم بمثل ما تحتاج إلى اصحاب المهن الاخرى، وتعرف انهم بشر كبقية البشر ولكنك تتساءل ان كان الامر مجرد تمرين وخبرة وتأهيل وانك لا تستطيع مماراتهم لان الظروف لم تضعك فى هذا الاختبار، والدراسة التى اختارها لك والدك لم تفض بك إلى مهنة مثل مهنتهم، أم ان هناك شيئا آخر فى هذه المهن يجعلها متميزة مختلفة لا تقبل الا نوعا من البشر بتكوين نفسى يختلف عن الآخرين، انك لا تستطيع ان تعزف آلة

الكمان التى يعزفها رجل ضرير يتلقط رزقه امام محطات القطار ولا تستطيع ان تقوم بحركات بهلوانية يقوم بها صبى فى الساحات العامة طلبا للصدقة والاحسان، ولا تستطيع ان تقود الحافلة أو تقود القطار أو تتعلق بحبال فى الطابق السبعين من احدى العمارات لتنظيف الزجاج أو طلاء الجدران، ان هذه المهن البسيطة التى تحتل مرتبة متواضعة فى السلم الاجتماعى تحتاج ايضا إلى موهبة ومهارة واتقان، وبرغم ان التفكير بها لا يصيبك بالرعب الذى يصيبك به التفكير فى مهن القضاة والاطباء والقادة العسكريين، فانك ايضا لا تتصور نفسك قادرا عليها، ولكنك تستحضر من قراءاتك ومشاهداتك ما ينفى هذا التصور ويؤكد ان الانسان يحتوى على قدرات تؤهله للتكيف مع كل الحالات، تستحضر صورة توباز فى المسرحية الفرنسية الشهيرة الذى كان رجلا أهبل وموضعا للسخرية والتنذر فإذا به يتحول عندما جاءت الفرصة إلى رجل خارق الذكاء يسخر ويتندر بالآخرين وتذكر ما كتبه روبرت جريفز عن الامبراطور الرومانى كلوديوس الذى جاءوا به إلى الحكم باعتباره رجلا عبيطا

ساذجا يتخذونه ستارا يحكمون من ورائه فاذا به يتحول إلى واحد من جبابرة الحكام.

ليس جميع الناس "توباز" أو "كلوديوس" وليس ضعفا ان تكون مهنتك هى اصلاح المراجيح فى روضة للأطفال أو اطعام العصافير فى حديقة الحيوانات، فالبشر لم يحققوا ما حققوه الا بتمايزهم فى المواهب والكفاءات وتنوع خبراتهم وقدراتهم ومعارفهم، وقد تحصل على بعض العزاء عندما تعرف ان مهنتك البسيطة التى تهزأ بها وانت تقوم بتعليم الأطفال الصغار مبادئ اللغة وتشرح لهم كان واخواتها مهنة لا يجيد اسرارها كل الناس، فنحن نذكر "كان" ولكننا ننسى فى أحيان كثيرة ان لها اخوات.

- ٢٧ -

أكثر المواقف حرجاً هى تلك التى تأتى نتيجة كلمات قلناها ونحن لا نعنيها، كلمات مجاملة أردنا أن نخرج بها من موقف محرج فإذا بها توقعنا فى موقف أكثر حرجا، كلمات لا معنى لها، نقولها مسايرة ومجاملة، نقولها بذهن مشغول وعقل غائب، نقولها فى لحظة استراحة من العناء والتفكير،

فإذا بها تتحول إلى عهود وقيود والتزامات ومصدر هم وشقاء يأتى من حيث لا ندرى ولا نحتسب.

يصادفك وأنت تعبر الطريق صاحب مشكلة، يريد أن يستعين بك على حلها، وبرغم ان الموضوع يخرج عن إمكاناتك فأنت لا ترفضه ولا تصده وإنما تقول كلمة عابرة للرجل متمنيا أن يجد حلا سريعا لمشكلته، ولكن تلك الكلمة العابرة تتحول إلى التزام ومسؤولية عندما تكتشف فيما بعد أن الرجل علق آماله عليك، وانه فهم تلك الكلمة فهما لم تكن تعنيه وصارت مشكلته هما يضاف إلى همومك ومشاكلك، وقد تكون محرراً لزاوية أدبية ويصادفك وانت تجلس فى المقهى طالب يملأ كراسته بمواضيع الانشاء وتشجيعا له تثنى على اجتهاده وذكائه فإذا بكلمات المجاملة تتحول إلى ملاحقة دائمة فى البيت والعمل لأنك لم تنشر إنتاجه، وقد تسمع فى إحدى الجلسات رأيا فى إحدى قضايا الفكر والسياسة لا يرضيك ولا توافق عليه ولكنك نفورا من الجدل والخصام أو مراعاة للضيف الذى قال هذا الكلام تهز رأسك موافقا فإذا به يصبح موقفا سياسيا يسجلونه عليك وقد يأتى من يحاربك باعتبارك تنتمى إلى ذلك الفكر أو الاتجاه

السياسى الذى يحمله شريكك فى الجلسة، وقد يتحول الأمر إلى شيء أكثر خطورة عندما تجد من يذيع هذا الرأى باعتباره رأيك ويصنع منه وثيقة معروضة للرأى العام.

والتورط بعد ذلك فى النفى والتكذيب والانكار لن يزيد الأمر إلا تعقيدا ويجعلك تظهر بمظهر من يقول كلاما فى السر يخاف أن يقوله علانية. واذا كان هذا هو الحال مع الكلمات التى تقولها بعقل غائب، أو تقولها على سبيل المجاملة ومسايرة الآخرين، فما بالك بالكلمات التى تقولها بصدق وانفعال، تقولها وأنت تعنيها فى تلك اللحظة التى أوجبت قولها، لأنك لم تقلها إلا استجابة لموقف طارئ، أو رد فعل لحالة من الحالات. وبرغم أنها لا تمثل رأيا ثابتا أو مبدأ من المبادئ التى تعتنقها، ولم تقلها إلا نتيجة حالة انفعالية مما يصادف البشر كل لحظة من حياتهم، إلا أن هذه الكلمات غالبا ما تجد من يسقط عنها ظروفها وتاريخها وملابسات الموقف الذى فرض قولها ويسوقها كدليل على الفكر الذى يقود حياتك وسلوكك ومواقفك. والتاريخ مملوء بالشواهد على هذا التحريف وسوء التفسير الذى يحدث لآراء المشتغلين بقضايا الفكر والابداع والسياسة وافكارهم

واقوالهم، يكفى ان نشير إلى المحاكمات التى ادانت علماء وادباء ومفكرين وسياسيين عبر مختلف مراحل التاريخ وحكمت عليهم بالسجن أو الموت بسبب كلمة لم تكن تمثل اتجاههم وتفكيرهم، وجاء عصر آخر يكشف الظلم الذى لحق بهم ويعيد لهم اعتبارهم، وهذا بلا شك يشير إلى مدى قوة الكلمات وخطورتها قبل أن يشير إلى الضعف البشرى الذى يسئ تأويلها وتفسيرها.

إن الكلمة مسؤولية، حتى وانت تقولها لاهيا عابثا، أو تقولها ساخرا هازلا، أو تقولها ساخطا ناقما واستجابة للحظة غضب وانفعال، فهى دائما مسئولية خطيرة، وهى مصايد وشراك. ترمى بكلمات عابثة

فوق الأرض فاذا بها تتحول إلى قطيع من النمور المفترسة تجرى وراءك وسط الغابة تريد افتراسك ولذلك فإن قاموس الامثال الشعبية يمتلئ بالكلمات التى تحذر من الكلمات، فلسانك هو الحصان الذى يصونك أو يخونك والكلمة قد تؤدى بك إلى التهلكة، وقد تجلب لك الحظ والنجاح، وهناك تعبيرات اخرى تبارك الصمت وتدعو اليه، ومهما كان الكلام الذى ستقوله جميلا وثمينا يعادل الفضة فان

السكوت دائما، اكثر جمالا واعظم قيمة لانه يعادل فى موازين الحكمة الشعبية أثمن المعادن وهو الذهب.

- ٢٨ -

لم أستوعب ما قاله الرجل إلا بعد فترة وجيزة من الوقت. كنت أقف فى طابور أحد المتاجر لأسدد ثمن ما أحمله من بضائع عندما رأيت هذا الرجل الإنجليزى الذى يأتى دوره بعدى وهو لا يحمل سوى زجاجة الحليب. كرهت أن أحتجزه حتى انتهى من تسديد ثمن كل هذه البضائع، فتنحيت له جانبا ليدفع ثمن حليبه ويمضى، ولكن الرجل كان كريما وأبى أن يتقبل هذا التنازل قائلا :

- إن هناك إنسانا أخر أولى باهتمامك.

نظرت خلفى أبحث عن هذا الإنسان الآخر الذى يستحق الاهتمام، فلعل هناك رجلا عجوزا أو امرأة مسنة أعياهما الوقوف فى هذا الطابور. لم أجد أحدا فنظرت إليه مستفسرا، قال بسرعة :

- لا أقصد أحدا غيرك. لأنك إن لم تهتم بنفسك فمن تراه سيهتم بك.

ابتسمت لروح الدعابة التى قال بها جملته. إنه يقولها من موقع الرجل الذى رفض أن يستفيد من هذا الإيثار، وذلك يمنحها قيمة أكثر من مجرد جملة مجانية يرمى بها الواحد منا وهو لا يعنيها. استوعبت ما قاله الرجل دون أن يفوتنى أن ما قاله وليد مجتمع المبادرة الفردية الذى يختلف عن المجتمع الذى أنتمى اليه وهو مجتمع العائلة الكبيرة التى يتكئ أفرادها على بعضهم بعضا، لكن هذه العائلة الكبيرة عندما داهمها مجتمع المدينة بعلاقاته الأكثر تعقيدا وشققه الأكثر ضيقا وطرقاته الأسفلتية التى تمنع التواصل بين أفنية البيوت التى كانت تتجاور وتتداخل وتصنع فناء واحدا يلتقى فيه أبناء الأسرة وأبناء القبيلة، اختلف حالهم وارتبكت خطاهم ولم يعد ممكنا أن يضبطوا إيقاعهم القديم مع إيقاع هذه المدينة الجديدة. ما يفهمه هذا الإنجليزى هو أننى جئت قبله إلى هذا الطابور، وهو جاء قبل الرجل أو المرأة التى تقف خلفه، ولن يستقيم هذا الطابور، إلا إذا حافظ كل واحد منا على حقه. لقد كفل لنا الطابور نظاما وعدلا وتكافؤا فى الفرص، فلا حاجة بعد ذلك إلى هذا الإيثار الذى يخل بالنظام مهما كانت الدوافع صادقة ونبيلة. أردت أن أترحم على

مجتمع العواطف الدافئة العامرة بالعطف والحنان والإيثار، فلم أجد ما أترحم عليه، لأننى تذكرت فى تلك اللحظة ما عانيته فى طوابيرنا العربية عندما كنت أقف فى الطابور أنتظر دورى، ولكن الطابور واقف لا يتحرك، تمضى الساعات وكأننا أمام شباك مغلق، مع أن الشباك مفتوح والموظف الذى يقضى مصالح الناس جالس يمضى الأوراق أو يصرف الدواء أو التذاكر أو قطع الغيار، فلماذا إذن هذا الابطاء، ثم أدير رأسى فأكتشف أن الطابور يتحرك ويتناقص من الخلف، كل الذين جاءوا متأخرين إلى الطابور ذهبوا يتدبرون أمورهم خلف الشباك، يحملون التوصيات ويستعدون لمثل هذه المناسبات ويعرفون صديقا يعرف صديقا يعرف صديقا ثالثا يعرف هذا الموظف الذى أوصاه بهم خيرا فانشغل بهم وانصرف لقضاء حوائجهم، وبقى الطابور واقفا لا يتحرك وأصحابه الذين لا يحملون التوصيات يسحقهم الملل ويحرقهم الغيظ ويأكل أعصابهم الغضب، حتى ينتهى الوقت ويقفل الموظف شباكه فيعودون إلى دورة أخرى ويوم آخر ووقوف فى طابور يشبه مشهدا بائسا فى إحدى مسرحيات العبث.

وأحاول فى مرة مقبلة ان اكون اكثر حذرا وقدرة على التعامل مع هذه الطوابير فأبحث عن وسيلة أتجنب بها الوقوف مزروعا أمام الابواب والشبابيك ولكننى اقع فى دورة عبثية أخرى وانا افتش عن رجل يعرف رجلا يعرف رجلا ثالثا يعرف ذلك الموظف، واذا وجدت هذه المرة رجالاً اهتدوا للرجل الذى يصرف الدواء، فمن اين لى ان اجد رجالاً آخرين يعرفون الرجل الذى يصرف قطع الغيار؟ لماذا اهرب من مشهد عبثى إلى دورة أكثر عبثا ومهانة عندما اتوسط بكل هؤلاء الناس من أجل قطعة غيار؟ ليكن وقوفا فى طابور تحرقه الشمس، أو عطبا يصيب السيارة ويوقفها عن العمل فكل ذلك اهون من هذه المذلة التى لا نهاية لها.

ولا أدرى لماذا اصبحت هذه الوساطات قانونا لا نعرف نظاما غيره، ونستخدمها فى قضاء اصغر هذه الأمور واكثرها تفاهة وضآلة، نشقى بها ونتعذب، مع ان هناك وسيلة أكثر سهولة ويسرا وهى ان نلغى هذه الوساطات ونقضى جميعا حوائجنا دون عناء أو اذلال للنفوس.

يجب أن تهتم بنفسك اولا، يقول الرجل الانجليزى، ولكننا نطبق هذه المقولة بطريقة تسبب لنا شقاء بمثل ما

تسببه للآخرين. والموظف الذى يجلس فى الشباك لا يرفض هذه الوساطات لان هناك طوابير اخرى سوف يذهب اليها وسيحتاج أثناء ذلك إلى وساطة هؤلاء الذين استعانوا به لقضاء حوائجهم منه، لقد وجد نفسه هو الآخر وسط هذه الحلقة التى لا تبدأ ولا تنتهى، شركا نصبناه لأنفسنا ووقعنا جميعا ضحاياه. وحبالا جدلناها من مشاعر الخوف والرهبة التى نحملها لمكاتب السلطة لأننا لم نكن نستطيع ان نواجهها بمفردنا فنستعين عليها بكلمة من اهل الحظوة والنفوذ، منذ ان كانت هذه السلطة عسكريا اجنبيا يعامل اهل البلاد كمواطنين من الدرجة العاشرة، وبقى معنا هذا الخوف حتى بعد ان رحل العسكرى الاجنبى، وظلت هذه الحبال قيدا فى أقدامنا وأرجلنا لا نستطيع أن نتحرر منه.

- ٢٩ -

الرجل الذى رآك تمشى فى الطريق ساهما شاردا غافلا عن الدنيا، لن يعذرك عندما ألقى عليك التحية فلم تره ولم ترد عليه. سيظن انك تجاهلته عامدا، وسوف يحتاج إلى

وقت طويل لاقناعه بأنك كنت منصرفا إلى التفكير فى قضايا شغلتك عنه فلم تستطع ان تراه.

وهو احراج يتعرض له المشتغلون بقضايا الفكر أكثر من غيرهم، فهؤلاء الذين يحتاجون إلى الانشغال بعوالمهم الداخلية أكثر من انشغالهم بواجهات المحلات التجارية التى يمرقون بمحاذاتها، وإذا كان العالم الخارجى يمدهم ببعض عناصر التفكير ومادته الخام فان هذه العناصر والمواد لن تصبح فكرا أو ابداعا الا اذا انصهرت فى مراجل النفس وتمررت عبر تلك المسارب الخفية المجهولة داخل ذلك العالم العامر بالاسرار. ولذلك فان الانصراف إلى تلك العوالم والانشغال بها جزء اساسى من وظيفة المبدع أو رجل الفكر. انه لا يستطيع ان يبقى طويلا بالخارج وانما عليه ان ينتقل سريعا إلى داخله ليرى ويعرف ويتأمل ويفهم وينقل هذه التجربة المعاشة أو هذا الادراك الذهنى والحسى للعالم إلى عمل فكرى أو ابداعى. وهو عندما يمشى فى الشارع غافلا عن الدنيا، فهو فى الحقيقة ليس غافلا عنها وانما هو غافل عن قشرتها الخارجية، مشغول بعمقها وجوهرها اللذين يختفيان خلف الاسطح والقشور، ولعل هذا ما يجعل

المشتغلين بقضايا الفكر والابداع اكثر فشلا فى تدبير امورهم العملية وقضاء حوائجهم المعيشية من الآخرين الذين لا يجدون شيئا يلهيهم عن التعامل مع الدنيا واسواقها ومزاداتها. ولكن ليس معنى ذلك ان الذين لا يشتغلون بقضايا الفكر والابداع فى غنى عن هذه المعايشة لذواتهم، فالعالم الخارجى لا يستطيع ان يكون بديلا عن غنى العوالم الداخلية وثرائها، وتعميق ادراكنا للحياة بحاجة دائما إلى التأمل والاستبطان والنظر داخل انفسنا والاهتداء بالاضواء الداخلية التى تسطع فى قلوبنا، ان العالم الخارجى عامر بالمظاهر التى يمكن ان تخدعنا وتضللنا وتنحرف بمسيرتنا اذا نحن اسلمنا لها قيادنا وانشغلنا بها عن انفسنا وانصرفنا انصرافا كاملا للتعامل معها تحقيقا للمكاسب والموارد واهملنا مواردنا الداخلية. ان هناك كونا كبيرا شاسعا مدهشا يستحق دائما أن نتأمله وننظر اليه دون ان نستطيع احتواءه. ولكن هناك كونا صغيرا احتوى هذا الكون الكبير داخل انفسنا هو الذى نستطيع ان نراه عندما نقفل اعيننا، ونستطيع ان نسمعه عندما نقفل الابواب وننفرد بأنفسنا، ونستطيع ان نتعامل معه حتى ونحن نباشر نومنا وغفوتنا، فكل انسان انما هو ممثل للجنس

البشرى بأجمعه، احتوى اسرار الكون ومعجزة الخلاق بمثل ما احتوى نتاج التطور البشرى والتجربة الانسانية، وما عرفه الانسان من معارف وخبرات طوال تاريخه، ولذلك فاننا عندما نطيل النظر فى شرفات المتاجر ونتأمل البضائع المعروضة فى الاسواق يجب دائما ان نتذكر ان هناك شيئا اكثر اهمية من هذه البضائع فى الاسواق، يستحق هو ايضا ان نطيل اليه النظر احيانا، هو هذا الانسان الذى هو نحن، والذى اصطفاه ا وجعله خليفته فوق الارض، ومنحه من القوى الروحية والطاقات الابداعية ما لاحد له، وان امكانات استخدامنا لهذه الموارد والملكات تبقى دائما امكانية مفتوحة لتحقيق مزيد من التطور والارتقاء.

وعندما ترى صديقا يمشى فى الطريق ساهما شاردا لا ينتبه إلى تحيتك، فلا تغضب منه أو تتأسف لشروده. لقد انشغل بالعالم الحقيقى وترك لبضع لحظات، عالم المظاهر والقشور ولذلك فهو يستحق التهنئة.

متأثراً بما قرأته عن طه حسين الذى كان يكتفى بتدخين ثلاث لفافات تبغ فى اليوم، دون زيادة أو نقصان، وظل محافظا على استهلاك هذا العدد من السجائر طوال حياته.

فقد جربت بعد محاولات كثيرة للامتناع امتناعا نهائيا عن التدخين، أن اكتفى بتدخين هذه العدد القليل. ولأن الرجل هو عميد الادب العربى ولأننى أنسب نفسى إلى الأدب فإن الاقتداء برجل مثله سيأتى بنتائجه الطيبة لا محالة، فهو بالوصول إلى هذه الصيغة حقق حلا سعيدا لمعادلة من أصعب المعادلات فى حياة المدخنين، وهى كيف نأخذ من السيجارة متعتها دون أن نأخذ أضرارها وكوارثها. إن تدخين ثلاث سجائر فى اليوم لا يمثل تهديدا للصحة أو خطرا عليها، وفى ذات الوقت فإن مدخنها سوف يحصل على متعة أكثر مما لو أكمل فى اليوم الواحد ثلاث علب، لأن التدخين الكثير يفقد السيجارة طعمها ونكهتها فتتحول إلى ضرر لا ترافقه متعة تبرره. وهكذا واضبت لعدة أيام على استهلاك سجائرى الثلاث كل يوم، تماما مثل ما كان يفعل طه حسين، واحدة بعد كل وجبة فطور أو غذاء أو عشاء. وكنت سعيدا بنفسى

لأننى اهتديت بحكمة هذه الرجل الجليل وقمت بواجب الوفاء نحوه وإحياء تقاليده لا فى الأدب والنقد وإنما فى التدخين.

ولا أدرى طبيعة الأصدقاء الذين كانوا يحيطون بطه حسين فساعدوه على أن يبقى ثابتا شجاعا فى تعامله مع لفافات التبغ، لأن أغلب أصدقائى كانوا من الذين لا يقيمون اعتبارا للتقاليد التى أرساها طه حسين فى مجال التدخين، ويدخنون مثل مداخن المطاعم الصينية، ولذلك لم أقاوم إغراء تلك السيجارة التى جاءت هدية منهم عقب احتساء القهوة، وبمثل ما ارتبطت السيجارة بالطعام صارت الآن ترتبط بالقهوة، وتدريجيا وجدت نفسى انحرف عن تقاليد طه حسين وأعود إلى الدوران فى حلقات الدخان التى تتواصل طوال النهار. وأدركت أننى لن أستطيع أن أكون مثل طه حسين، لأننى لا أملك إرادة كإرادته ولا عزيمة كعزيمته ولا أصدقاء كأصدقائه، وقد تأثرت كثيرا لما يحمله هذا الفشل من دلالات ومعان تتجاوز الموقف من التدخين والدخان وتصل إلى جوهر القضايا الأدبية والإبداعية، لأن من يفشل فى مجاراة طه حسين فى عمل بسيط صغير مثل التدخين بعد الغذاء كيف يدعى لنفسه أن يجاريه فى مجالات الأدب ويقتدى

بآرائه وأفكاره ويطمع فى تحقيق مكانة مرموقه فى هذه المهنة التى كان هو سيدها وعميدها.

انتهت المحاولة بالفشل.

وبدلا من أن اصبح مجرد ضحية من ضحايا هذه العادة المهلكة القاتلة، فقد أضفت اليها حملا ثقيلا من مشاعر الإحباط والمرارة نتيجة الخيبة التى منيت بها مطامحى الفنية ومشاريعى لتحقيق العمادة فى مجالات الأدب والنقد.

لأنك تدرك أن الحياة ليست رحلة سهلة بسيطة خالية من المشاكل والعقبات والزوابع والاعاصير، وتدرك ايضا ان البشر لم يخلقوا جميعا من معدن واحد بالغ الصفاء والبهاء، فأنت لا تفاجأ عندما تواجه صراعا وتدخل معركة فرضت عليك فرضا.

ومهما كنت عازفا عن مثل هذه الصراعات، زاهدا فى دخول ميادينها واسواقها، متخليا عن حصتك من المكاسب التى يتصارع هؤلاء الناس لتحقيقها، فانك تجد نفسك فى مناسبات كثيرة مرغما عليها، مشتبكا فى عراك مع احد الذين

يحترفون المشاجرة والنزاع ويريدون تأكيد ذواتهم المتضخمة على حساب ذاتك، لقد صبرت على الضعيف الذى جاء يقاومك فقلت له انه الكثر قوة، وصبرت على القصير الذى جاء يطاولك فقلت له انه اكثر طولا، افسحت لهما الطريق وتركتهما يتصارعان مع ظليهما، ولكنك لا تستطيع ان تفسح الطريق لهذا الذى لا يبغى الاعتراف بطوله وقوته وانما يريد ان يستخدمك عتبة يقفز فوقها متسلقا الجدران، تحاول ان تبتعد عنه فلا تستطيع، وتحاول مرغما ان تقاومه مقاومة الرجال للرجال، ولكنه يباغتك عندما يستخدم اسلحة ساكنى الكهوف وكائنات الغابة، ويرسل عليك هوامه وحشراته الزاحفة، وهنا تجد نفسك تواجه مشكلة اخرى، لقد ارغمك على ان تدخل معه هذا الصراع، ولكنك لا تستطيع ان تصارعه بأسلحته الرخيصة وحشراته الزاحفة ووسائل حربه الفاسدة، تقف حائراً تخشى الهزيمة وتخاف من جهة اخرى السقوط والتلوث إن انت جاريته فى أساليبه ووسائله، وتستحضر مقولة ذلك العالم الذى قال:

"ما جادلنى عالم الا وغلبته وما جادلنى جاهل الا وغلبني" والذى يجادلك ويصارعك ليس الجهل والتعصب،

وإنما الرخص والابتذال والسقوط البشرى، وتدرك انه سوف يهزمك فى الحالتين لأنك اذا استخدمت وسائله وهزمته، فستكون تلك هى هزيمتك الفادحة، هزيمة امام نفسك وامام كل ما نذرت له حياتك من قيم ومعان. قبل ان تكون هزيمة أمام رخصه وابتذاله وحشراته وهوامه الخسيسة.

ولعل هذا هو السبب الذى يجعلنا نرى رجالا كبارا يقفون فى الظل، ونرى صغارا تافهين يتسلقون الجدران كالعناكب ويتربعون فوق الاماكن العالية. يأتى الدخلاء والمتطفلون واصحاب الذمم الفاسدة فيطردون كبار النفوس كما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة، ويستخدمون أساليبهم الملوثة وحشراتهم الخسيسة التى جلبوها من عوالم الكهوف والمستنقعات التى انبتتهم، كبديل للعلم والصدق والموهبة والكفاءة والاجتهاد، وغالبا ما ينشئون فيما بينهم تحالفا مدنسا ويمدون الشباك لحمايتهم من سطوة العلم والاخلاق والقيم والأصالة، ولكنها شباك مثل شباك العنكبوت مصنوعة من لعاب لازج كريه ومادة خسيسة دنيئة سرعان ما تذوب وتتمزق وتتلاشى تحت اصغر شعاع من أشعة الشمس فنرى عندئذ سقوطهم الفاجع السريع الذى يأتى اكثر سرعة من

صعودهم، دون ان يتأسف احد لهذا المصير البائس الذى يلاقونه، لانه مصير يليق بهم ويليقون به.

- ٣٢ -

تبذل الآن جهود عربية واسلامية ودولية لمكافحة الجراد الذى يهاجم بعض بلاد الشمال الافريقى.

ومن عجيب المفارقات ان هذه الآفة التى تنذر بالويل والثبور والهلاك، والتى تدق من أجلها نواقيس التحذير والخطر، وتستنفر لمواجهتها جيوش واساطيل من الطائرات، ويدعى المجتمع الدولى بكاملة للمساهمة فى صدها والقضاء عليها، هذه الآفة كثيرا ما كانت مناسبة للابتهاج والفرح فى قرى صحرائنا الكبرى، ولقد شاهدت شخصيا كيف كان الناس يبتهجون لمجئ الجراد باعتباره نعمة ساقها ا اليهم. فقد كان لمجيء الجراد فى تلك الاعوام معنى واحد لدى اهل القرية هو ضمانة وجود طعام لاطفالهم لعدة ايام مقبلة. فقد كانت اعوام قحط وجفاف، ولم يكن لأهل القرية محاصيل زراعية يخافون عليها من الجراد ولم يكن بإمكان الجراد أن يأكل شيئا غير الشعال والرتم وأشجار السدر والبطم التى لا

تطعم أحدا، ولأنهم يحبون أكل الجراد ويجدون فيه مادة غذائية تكفيهم عناء البحث عن طعام آخر فانهم ما ان يعرفوا بأن الجراد فى طريقه إلى قريتهم حتى تشرق وجوههم بالبشر والسعادة. يبدءون مظاهر الفرح والابتهاج ويرسلون الرسل لتسقط اخبار الجراد، ورصد حركته، ليأتى مع أول الليل من يحمل البشرى بأن الجراد ينام على مسافة ساعة أو ساعتين من قريتهم وعليهم ان يستعدوا لجمعه فى الأشولة والغرائر وهو نائم قبل أن تشرق عليه الشمس ويطير من بين ايديهم.

وهكذا لا يبقى احد فى القرية الا ويذهب لجمع الجراد والعودة به إلى البيوت لتحميصه والاستغناء بأكله عن أكل أى شيء آخر لبضعة ايام.

لقد كنت احد المنتفعين بمواسم ظهور الجراد ولازلت احن إلى طعمه اللذيذ ولهذا فاننى اشعر بالأسى والاسف لأننى لن استطيع ان اتناوله بعد ان صار يتغذى بهذه السموم التى يرشونه بها أينما ذهب.

كنا فى قريتنا لا نأكل شيئا إلا وهو ممزوج بالتراب.

فقد كانت رياح "القبلي" التى تهب من الصحراء محملة بالرمال والأتربة لا تعرف هدنة إلا خلال أشهر الشتاء التى تمنحها عطاء كريما للرياح القادمة من جهة البحر كى تجلدنا بسياط منقوعة فى الملح.

كنا فى قريتنا لا نأكل شيئا أو نشرب شيئا إلا وهو معجون أو ممزوج بالتراب.

ولم يكن هذا الشيء الذى نأكله موائد غنية متنوعة يتأسف الانسان اذا مسها التراب، انه إن لم يكن بعض الحشائش والأعشاب وحبات البلح المجفف التى غالبا ما يكون التراب جزءاً أساسيا فى تكوينها، فهو كسرة خبز مما نطهيه فى كوانين النار المحفورة وسط الأرض ونأكله ممزوجا بالفحم والرماد، فاذا جاء التراب وأضاف نفسه إلى بقية المواد التى يتألف منها الرغيف فان واقع الحال لن يتغير كثيرا.

وكان هذا هو طعام الغالبية من أهل القرية، وقد نهتدى إلى قلة محظوظة ممن يجدون مع الخبز اداما، أو مع التمر حليباً، إلا أن التراب كان يدخل كعامل عدل ومساواة فيلغى

هذا التفاوت الطبقى ويجعل الطعم الغالب على كل الأغذية هو طعم التراب. ومادام الانسان كان فى الاصل ترابا، فلن يضيره ان يضيف إلى ترابه المزيد من التراب.

وبرغم حياة الشظف والضنك فإن التذمر لم يكن فى تلك الأيام نغمة يجيد الناس عزفها بمثل ما هو الحال الآن، لم يكن يعرف الناس هذا النوع من الانين والشكوى والضجر من أحوال الدنيا الذى نسمعه ونحن نجلس إلى أكثر الموائد ازدحاما بالصحاف المليئة بكل ما تشتهى الأنفس، بل إن تلك الأيام بفقرها وترابها تبدو الآن وكأنها جزء من عالم جميل مفقود، ويأخذنا الحنين إليها باعتبارها أكثر مراحل العمر بهجة وهناء. ولا أدرى ان كان السبب فى هذا الحنين يكمن فى الزمن الذى يجعل للماضى مهما كان بائسا سحره الذى يسيطر على القلوب فيحيل القبح جمالا والشقاء سعادة، أم أن السر فى النفس البشرية التى لا تعرف قيمة ما تملكه إلا بعد أن تفقده، أم ترانا حقا نعيش فى زمن تكاثرت همومه وازداد بؤسه برغم وفرة الطعام والكساء، حتى صرنا ننظر إلى أكثر المراحل فى تاريخنا تعاسة وفقرا وكأنها إحدى الحلقات الذهبية فى الزمن الضائع الذى مضى ولن يعود.

عاد الرجل من رحلة البحث عن جمله التائه.. بلا جمل.

كان شيخا من شيوخ العائلة احتفظ بصحته رغم تقدم العمر، وأبى الا أن يذهب دون عون من احد للبحث وراء الشعاب القريبة عن جمله الضائع. وعاد منهكا، متعبا، يغطيه غبار الطريق. ولكنه كان سعيداً، وكانت الكلمة الوحيدة التى تتردد على لسانه:

- لم أجد الجمل، ولكن الدنيا ما تزال بخير.

لم يعد يأبه بالجمل الضائع فقد وجد شيئا أخر يعوضه تلك الخسارة الكبيرة. لقد ذهب فى رحلته يحمل مطرة الماء وزوادة تكفى ليوم واحد ظنا منه ان البحث لن يأخذ منه أكثر من يوم. ولكنه مضى يضرب فى البادية أكثر من عشرين يوما ويرسل لأهله الأخبار كى لا ينشغلوا عنه، وعاد بعد ان ادرك ان الجمل قد ضاع منه إلى الابد، ولكنه خلال هذه الرحلة اهتدى إلى بشر لم يكن يعرفهم من قبل، خصائص انسانية لعله ظن انها ضاعت هى الأخرى مع تواتر الايام

والفصول، وجدها ماثلة امامه أثناء هذه الرحلة. كان اهل البادية يكرمون وفادته دون معرفة سابقة به، يتأثرون لمصابة، ويذهبون معه للبحث عن جمله، وما أن يصل إلى إحدى النجوع أو المضارب فى تلك الصحراء حتى يقيمون له الولائم ويستبقونه ليوم أو يومين ثم لا يتركونه حتى يقطعون معه جزءا من الطريق ويسلمونه إلى نجوع ومضارب أخرى.

- لا تزال الدنيا بخير.

كان يقولها لكل من حوله، ويرد بها على كل سائل يستفسر عن مصير الجمل، حتى اذا ذهب فى ظن بعضهم انه قد لقى الجمل، قال مصححا:

- لم أجد الجمل، ولكن الدنيا ما تزال بخير!

لقد صارت خسارته الآن هينة ضئيلة، بجوار ما تكشف له من حقائق اعادت له الثقة بالنفس والحياة. لقد ذهب فى رحلته، بائسا، حزينا، متأثرا بسبب هذا المصاب الذى جعله يعتقد بأن الخير قد نضب من الدنيا، وعاد مبتهجا سعيدا، برغم الفشل فى العثور على ضالته. لقد اتاح له الجمل الضائع فرصة ان يتزود بهذه الخبرة التى اغنت

وجدانه وازالت عن عينيه تلك الغشاوة التى تصيبنا بها الاشياء المكرورة المألوفة والبقاء زمنا طويلا وسط بيئة صغيرة ضيقة، كانت رحلة الشيخ كشفا، ومغامرة واقتحاما لآفاق اكثر رحابة واتساعا، عاد بعدها يخاطب نفسه قبل ان يخاطب الآخرين قائلا:

- لم اجد الجمل، ولكن الدنيا ما تزال بخير.

يقولها بقوة وعناد وكأنه يستفز بها مشاعر الآخرين لاثبات العكس، لانه يملك الآن الادلة والبراهين التى تبطل أى قول يخالف قوله، اذ من يستطيع ان يواجه رجلا فقد جمله ومع ذلك يؤمن ان الدنيا ما تزال بخير.

اننى كثيرا ما أعود إلى استذكار هذا المشهد الذى اختزنته منذ ايام الطفولة، اعود اليه كلما احسست بشيء من الضيق والكآبة نتيجة الروتين اليومى، أو الضجر الذى يأتى بسبب هذه العوالم الضيقة المحدودة التى نعيش سجناء لها. ان العالم لا ينتهى عند حدود هذه الاقاليم التى الفناها، وهو لا ينتهى عند دائرة الاهل والاصدقاء الذين يحيطون بنا، ان المشاحنات الصغيرة والخلافات اليومية التى لا معنى لها، كثيرا ما تتراكم وتتكثف لتصنع ضبابا يحجب عنا الرؤية

الصحيحة ويصيب اكثر علاقاتنا حميمية بالتأزم والتوتر ولذلك فان كسر هذه الاطواق التى تحجب عنا الرؤية وتجديد التواصل بالناس والحياة خارج الدوائر التى تحيط بنا يبقى ضرورة لاغناء الوجدان وكسب مزيد من الثراء والتنوع الذى يكشف لنا عقم تلك اللحظات التى نظن فيها ان العالم قد فرغ من الهواء النقى، وان الخير قد نضب من الدنيا.

اننى لم افقد جملا، ومع ذلك فلن اتردد كلما احسست بالضجر والضيق فى أن ارتاد تلك المناطق التى تختفى خلف الشعاب القريبة.

- ٣٥ -

رجل من جيل الاجداد يحمل فوق كتفيه اعوامه الثمانين أو التسعين ويمضى صامتا فى الطريق، نراه وهو يجتاز الشارع من امامنا فنضرب له ابواق سيارتنا تعزيزا وتبكيتا لانه اعاق بخطاه البطيئة طريقنا وتسبب فى تأخيرنا.

يلتفت الينا وينظر نحونا بحزن فلا نكترث له ولا نبالى بنظراته، نمضى فى طريقنا متعجبين من سلوكه الغريب.

ونراه مره اخرى جالسا أمام بيته أو أمام الجامع الذى يقصده للصلاة فنمر من امامه مستعجلين، قد نطلق عليه السلام وقد نهمل وجوده كله.

نتحدث فى مجالسنا وصحافتنا وإذاعاتنا ومنتدياتنا عن تضحيات الأباء والاجداد الذين خاضوا أعتى المعارك وافتدوا الوطن بكل مرتخص وغال، وحققوا لاجيالنا ما تعيشه من رخاء وحرية بفضل جهادهم وكفاحهم ومعاناتهم وشقائهم. ونضرب الامثال ببطولاتهم وقدراتهم الاسطورية على الصبر والاحتمال، نكتب ذلك فى الكتب ونعتمده تاريخا يدرس فى المدارس، ثم ننسى عندما نلتقى فى الطريق بهذا الشيخ الطاعن فى السن، ان هذا الرجل هو جيل الأباء والاجداد يقف امامنا دما ولحما ووجودا وتاريخا حيا نابضا وليس مجرد خطبة أو صحيفة أو كتاب، ننسى كل ذلك وكأن جيل الآباء كان مجرد كتلة هلامية لا شكل ولا ملامح لها، أو كأنه كان دخانا تبخر ذات يوم فى الهواء، ولم يكن ذلك الجيل بشرا منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، مقيما بيننا حتى يأذن له ا بالذهاب. ننسى ان هذا الرجل الذى يحمل فوق كاهله ثقل السنين، ويحمل فوق جبينه كبرياء التاريخ، ويحمل

فوق ملامحه آثار تلك الملاحم التى حققت لبلادنا الحرية والكرامة، انما هو احد ابناء ذلك الجيل الذى نشيد بامجاده ونحتفل ببطولاته فى الكتب والخطابات والمناسبات الرسمية، حقا، قد لا يكون الواحد منا سعيدا بهذا الواقع الذى يعيشه الآن، وقد لا يكون راضيا عن المصير الذى آل اليه الوطن بعد خروج المستعمرين، غاضبا لهذه المحن والأزمات التى يعانى منها كل ابناء المجتمع.

ولكن تلك المشاكل لا يتحمل وزرها ذلك الجيل أو هذا الرجل الذى ينتمى اليه، لقد ادى ذلك الجيل رسالته ودفع ضريبة الدم والفداء حتى حقق للوطن انعتاقه من نير المستعمرين، وما حدث بعد ذلك فهو مسؤولية الجيل الذى تسلم مهمة البناء، واذا كان هناك تفريط بالامانة، أو عبث بمقدرات الاوطان، فلنبحث بين ابناء جيلنا عمن اساء إلى منجزات جيل الآباء والاجداد الذين اوفوا بالتزاماتهم خير وفاء.

ولسوف نجد ان هذا الرجل الذى عاش اعواماً فى قلب الظلام، وعرف جيدا معنى الشقاء والمعاناة، لا يشاركنا ما نضج به من أنين وشكوى، فهو ينظر بامتنان لما تحقق لوطن

لم يعرفه فى الزمن السابق الا مرتعا للغزاة والمستعمرين. انه لا يشكو من شيء الا من هذه الابواق المنفرة النى نطلقها فى وجهه عندما يحاول عبور الطريق.

حدث أثناء الاحتفال بذكرى معركة من معارك الجهاد أن سمعت رجلا يقول للدركى الذى اراد ان يبعد الناس عن منصة الاحتفال.

- رفقا بى يا ولدى فانا قد تجاوزت المائة عام.

انقضى ذلك النهار بخطاباته وكلماته الحماسية التى تشيد بأبطال الجهاد، وعندما جاء الليل وعدت إلى بيتى احسست بتأنيب ضمير لا حد له، لقد وقفت صامتا، ذاهلا عن كلمات الرجل، مشغولا بأخذ طريقى إلى المنصة مع غيرى من رجال هذه الايام لنتكلم عن تضحيات جيل الأباء، فى حين ان واحدا من ابناء ذلك الجيل ممن صنعوا تلك اللحظات المجيدة كان يقف وسط الزحام ممنوعا من دخول المنصة، محتملا إهانة ذلك الدركى الذى يريد ابعاده عن مكان الاحتفال، ونبت فى ذهنى يقين لا مجال لنقضه أو تفنيده بان الرجل ما كان ليأتى إلى هذا الاحتفال باعوامه التى تجاوزت المائة لولا انه كان من جنود تلك المعركة التى

نحتفل بمرور ستين أو سبعين عاما على وقوعها. لقد كان فظيعا ذلك الذى حدث، وما يزيده فظاعة ان الأمر بات سلوكا عاما نمارسه دون ان نحس بأدنى شعور بالاثم، أو ننتبه إلى التناقض الفادح بين ما نقدمه فوق منصات الخطابة وما نمارسه حين نعبر الشوارع والطرقات.

- ٣٦ -

كان أسفى كبيرا عندما وجدته يفتح باب المستودع الكبير الذى ذهبت اليه لإصلاح سيارتى، فرحت برؤيته فرحا شديدا، وذكرت له اسمى فتذكرنى وعانقنى عناق الاب لابنه، ولكننى تأسفت عندما رأيت هذا الرجل الذى رفعته خلال أعوام الطفولة إلى مصاف الابطال يعمل بالمدينة غفيرا لمستودع للسيارات.

تقدم به العمر ولكنه لم يصل إلى مرحلة الشيخوخة بعد، لا يزال محتفظا ببنائه الجسمانى القوى وقامته الطويلة ذات المهابة والوقار، معتمرا طاقيته الريفية الحمراء باسلوبه المتميز الذى ينحرف بها قليلا نحو الشمال.

وبرغم فارق السن فقد كان صديقا لوالدى الذى يكبره عدة اعوام، وكان والدى يتحدث كثيرا عن شهامته وشجاعته وقدرته على مجابهة الاهوال، كما كان أهل القرية والارياف التى تجاورها يذكرون أعماله كأنها الأساطير، فما داهم السيل بيتا الا وكان هو بطل الانقاذ، ولا تعرض انسان يعرفه لمحنة أو مشكلة، الا وكان هذا الرجل أول من يأتى للعون والمساعدة، وكان حضوره أثناء الخصومات التى تنشأ خلال مواسم الحرث يبعث الرهبة والمهابة ويعجل بحسم الخلافات. وكثيرا ما يختار أثناء الحرث ارضا جبلية تحتاج لجهد وعناء فيزيل احجارها ويقتلع النباتات التى تفسد الزرع ثم يحرثها تاركا الأرض السهلة التى حازها فى البداية إلى واحد من كبار السن فى القرية أو إلى غريب جاء يستعطف أهل الشهامة اشبارا يزرع فوقها قوتا لأولاده، ولذلك انطبعت ذكراه فى ذهنى كأحد الرجال الكبار الذين يتناقل الناس ذكرهم ويعترفون بفضلهم ويتحدثون عنهم بحب واعجاب كبيرين.

كان كدرى عظيما وأنا أرى هذا الرجل الكبير يزاول مهنة صغيرة كهذه المهنة ويقف على باب المستودع يستقبل

اناسا لا يعرفون شيئا عن تاريخه ولا يدركون المكانة الكريمة التى كان يحتلها بين اهله. ولا شك انه هو ايضا يحس بكدر يشابه كدرى من اجله ويدرك ان حاله هنا يختلف كثيرا عن حاله فى قريتنا ولذلك فهو يفتح الباب ويقفله فى صمت ثم يعود إلى غرفة صغيرة ملحقة بالبوابة ليجلس هناك وحيدا وغريبا فى هذا العالم الذى لا يشبه عوالمه. لقد جاءت التحولات الاجتماعية الكبيرة تقذف به بعيدا عن محيطه وبيئته ومجالات خبرته ومواهبه وبعيدا عن اهله الذين يعرفون قيمته، وترمى به فى هذا المستودع الغريب عن روحه ووجدانه.

كنت أريد أن أسأله لماذا؟ لماذا قايض تلك الحياة الكريمة بهذه الحياة العقيمة العاطلة التى تسد كل المنافذ أمام كفاءاته وقدراته؟ لماذا استبدل مكانة السيد فى ارضه وبين اهله بمكانة الخادم فى ارض الآخرين؟

ولكن الأسئلة كانت تتوقف فى حلقى، لأننى أعرف ان القضية اكبر مما يريده أو يتمناه الافراد مهما كان الواحد منهم قويا، عظيم البناء، وعظيم الارادة ومشهوداً له بالرجولة والشهامة والشجاعة كهذا الرجل.

وبرغم سعادتى وانا التقى به الا ان مشهده وهو يقف على ذلك الباب كان فوق قدرتى على الاحتمال فصرت امتنع عن الذهاب بسيارتى إلى ذلك المستودع.

إننى احد الذين يباركون هذه التحولات الكبيرة التى تشهدها مجتمعاتنا، وما يرافقها من تحديث للمجتمع العربى الذى يرتدى ثوب التمدن والتحضر.

ولكن هذه التحولات لا تأتى دون ثمن يدفعه الناس، انها تأتى وتجلب معها بعض الجوانب السلبية التى تملأ قلوبنا بالكدر والاحزان، وكان مشهد ذلك الرجل وهو يقف صامتا، ووحيدا، وغريبا على باب ذلك المستودع من اكثر الجوانب بؤسا واعظمها ثقلا على القلب والوجدان.

لا بد أنك تساءلت مثلى وأنت تمر ببعض الدساكر والقرى المتناثرة عبر مفازات الصحراء، والمقطوعة عن الحضارة والعمران، عما يرغم اهلها على الاقامة فى مثل هذا الخلاء حيث لا شيء غير الارض القاحلة الصفراء والهضاب الصخرية العارية من الخضرة، والبون

الصحراوى الذى يوحى بالوحشة والفناء. عشش من الزنك، وحيطان من الطين، ونخلة عطشى تتحدى شح الزمان، ومعزة تبحث بين الصخور عما تأكله، وكلاب ينبح السحب لعلها تطعمه، هذه هى كل مقومات الحياة فى تلك الدواشر والحواكير التى انقطعت من حولها موارد الرزق منذ ان انتهت تجارة القوافل قبل مائة عام، ومع ذلك ظل اهلها يعاندون دورة الزمن، ويديرون اظهرهم لكل ما يحفل به الكون من تحولات، متشبثين بالبقاء فى اماكنهم، صامدين فى وجه الريح والبؤس، قد يسافرون لالتقاط الرزق من اماكن اخرى ثم يعودون أو يرسلون من بينهم من يبعث لهم بما يسدون به الرمق، دون ان يفكروا لحظة واحدة فى تغيير ظروفهم والانتقال إلى بقاع اخرى أوفر رزقا واقل وحشة وتعاسة واكثر خيرا ونفعا وصلاحية لحياة الإنسان. وبرغم ما قد يتوفر فى اوطانهم من جبال خضراء، واراض خصبة مهجورة تبحث عمن يستغلها، أو شواطئ عامرة بفرص العمل والرزق.

وهناك قصة تروى عن قاطنى هذه القرى، فقد حدث بعد الحرب العالمية الثانية ان ارسلت قيادة جيش الحلفاء

مبعوثيها يحملون البشرى بانتهاء الحرب لبعض نقاط التجمع السكانى فى الصحراء التى كانت تحيا تحت السيطرة الايطالية، قائلين لاهلها بان الحرب قد انتهت، وان الحكم الايطالى الذى ارسلهم إلى هذه المنافى قد طرد من البلاد وان بامكانهم العودة إلى بلدانهم وديارهم وممارسة حياتهم الطبيعية بين اهلهم، فقد امر الحاكم الجديد بالافراج عنهم وانتهاء مدة نفيهم من ديارهم.

ورد أهل تلك القرى وسط دهشة المبعوثين والمترجمين قائلين:

- ولكن عن اى منفى تتحدثون، ان هذه ديارنا التى لا نعرف ديارا غيرها وهذه هى حياتنا الطبيعية التى لا نعرف حياة سواها.

- ٣٨ -

عندما أغيب عن بيتى أياما ثم اعود لافتح صندوق البريد الذى يخصنى بمدخل البناية واجد ان الفواتير تنام الواحدة وراء الأخرى استعيد من فورى ذكرى تلك الايام الرائعة عندما كنت اعيش فى بيت لم يتلق خلال الاعوام التى

اقمتها فيه فاتورة واحدة. ومتحسرا أتأمل هذه الفواتير التى لا حصر لها، فهذه فاتورة واحدة للغاز واخرى للكهرباء وثالثة للماء ورابعة للهاتف وخامسة تتعلق بايجار البيت وسادسة تتعلق باصلاح عطب فى المطبخ أو الحمام وسابعة للدار التى اشتريت منها السيارة وثامنة للورشة التى تصلحها وتاسعة لمحطة الوقود التى اتعامل معها وعاشرة تتصل بقسط من اقساط التأمينات أو قرض مصرفى وجب سداده وغير ذلك من وسائل واساليب لاستنزاف كل قرش يكتسبه الواحد منا بالسهر والعرق والكدح.

لقد عشت فى مراحل العمر المبكرة فى قريتنا لا اذكر ان بيتنا تلقى فاتورة واحدة، لم تكن هناك وكالة تأجير أو دار لبيع السيارات أو شركة تأمينات أو اناس يبيعون الماء أو يبيعون الهواء كما هو الحال الآن. كان البيت القروى يعيش بوسائله البسيطة والبدائية اكتفاء ذاتيا ضمن له النجاة من مصائب هذا الاختراع الذى اسمه "الفاتورة" فعاش هانئا مستريحا، لم يكن هذا البيت يحتاج إلى ماء يصعد اليه يوما ولا يصعد بقية الايام حتى يأتى من يطالب اصحابه بدفع ثمن لهذا الماء، لان هذا البيت لم يكن شقة باحدى العمارات كما

هو حال المساكن هذه الايام، انه بيت ارضى متين البناء بقربه بئر أو ينبوع ماء نرد عليه ونلتقى حوله ونصنع كلما ذهبنا اليه مناسبة للسمر والاحتفال والغناء ولم نكن نستخدم مواقد الغاز وندفع ثمنا لها، فاكوام الحطب تملأ مداخل المطابخ والطهى بها الذ طعما وابهى رائحة واكثر بهجة ومتعة، ولم نكن نحتاج إلى هواتف نتخاطب بها وتصبح بديلا لحرارة اللقاء ومتعته، ولم نكن بحاجة لوكالات تأجير البيوت والعقارات فالانسان لا يسكن عادة الا بيته واذا اقتضت الظروف ان يأوى عائلة جاءت للاقامة المؤقته بالقرية فمن العار ان تدفع له ايجارا أو يطلب منها مالا مقابل هذا الايواء وهذه فضيلة لا تعرفها للأسف الشديد وكالات تأجير الشقق والبنايات التى صارت تنتشر كالفطر فى كل مكان، اما السيارة التى يسعى لنيلها الفقير قبل الغنى لما صارت تمثله من اهمية فى هذا الزمان فان الحياة داخل القرية كانت تمضى دون حاجة إلى استعمال هذه الوسيلة التى لم يكن احد من اهلنا يمتلكها لانه حتى لو امتلكها فلن يجد طرقا تسير عليها واذا وجد هذا الطريق فهو دائما يقود إلى المدينة التى لا حاجة به إليها لأن رزقه وزرعه وشياهه موجودة بهذه

الشعاب والهضاب المحاذية القريبة والتى لا تقوى السيارة على اقتحامها. ولذلك فان قرانا ظلت على مدى قرون كثيرة لا تعرف هذا الاختراع الذى يسمونه "الفاتورة" التى ما دخلت بيتاً الا جلبت له الهموم والمشاكل وامراض الرأس والقلب.

أنظر متحسرا متأسفا إلى كميات الفواتير وادرك ان للتقدم ثمنا غاليا يعادل كل ما دفعته وما سأدفعه فى حياتى من فواتير، كما ادرك ايضا ان لهذه الفواتير علاقة بكل ما صرنا نعرفه من علل عصرية مثل الارق والقلق والكآبة وامراض السكر والقرحة وضغط الدم وغير ذلك من امراض الروح والبدن التى لم نكن فى القرية نسمع لها ذكرا.

إلى وقت قريب كان اهل قريتنا يعتبرونه عيبا وخروجا على الأصول والتقاليد ان يرسل الاب ابنته إلى المدرسة، وخلال ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمان صار عيبا وتخلفا ان يمتنع الاب عن ارسال ابنته إلى المدرسة. هكذا خلال فترة زمنية قصيرة مداها جيل واحد تغيرت اتجاهات الرأى العام نحو قضية المرأة من النقيض إلى

النقيض وما كان اهل القرية يعتبرونه عارا أو انحرافا صاروا الان يعتبرونه واجبا لابد لكل اب ان يقوم به نحو ابنته. وفى حين كان الرجال يجفلون عند التفكير فى الزواج من أى امرأة متعلمة صاروا الان يجفلون من المرأة الجاهلة واصبحت المرأة التى نالت حظا من التعليم تحظى بفرص افضل للزواج من المرأة الاخرى التى لم تغادر البيت طوال حياتها. فقد رسخت هذه القناعات الجديدة التى تقول ان المرأة المتعلمة قادرة على تربية اطفالها اكثر من المرأة التى لم تنل تعليما.

ولاشك ان السرعة التى تغيرت بها اتجاهات الناس وقناعاتهم فيما يخص هذه المسألة سرعة قياسية ولا بد ان هناك سببا جعل هذا الانقلاب فى المفاهيم يحدث بمثل هذا الحسم وهذه القطعية فهل معنى ذلك ان الوسائل الحديثة لنقل المعرفة واجهزة الارشاد والتوعية قد اثمرت نتائجها بمثل هذه السرعة، ام ترى ذلك يحدث لأن وتيرة التغيير وبرامج التنمية والتشييد التى حققت طفرة سريعة فى مستوى المعيشة قد استطاعت ان تحقق تغييرا فى المفاهيم والمعتقدات يوازى التغيير المادى.

ومع احتمال ان يكون لهذين العاملين تأثيرا فيما حدث، فان من الخطأ الاعتقاد بأن قناعات تتصل بقضايا اساسية فى الحياة يمكن ان تتغير بهذه السرعة والبساطة لولا عامل ثالث هو الذى أرى أنه كان أكثر العوامل حسما فى هذا التغيير. لقد تحقق التغيير بهذه السرعة وهذا الجزم لانه جاء يخاطب شيئا كان منذ الأصل موجودا فى تربتنا العربية وثقافتنا القومية وميراثنا الدينى ونتيجة لعوامل تاريخية طارئة على بلادنا لعل من اهمها التزمت الذى ساد ابان العهد التركى ثم ازداد رسوخا فى مواجهة الغزو الاجنبى الذى فرض على شعوبنا العربية ان تنكفئ داخل ذاتها وان تمتنع عن التعاطى مع برامجه التعليمية واساليبه التربوية المستخدمة لصالح اغراضه الاستعمارية، هى التى اوجبت هذا التحفظ فى قبول الافكار الجديدة، وعندما زالت هذه العوامل التاريخية الطارئة وانتهت عهود الانحطاط والتزمت وانزاح عن كاهل شعوبنا عبء السيطرة الاجنبية صار بامكان الذهنية العربية ان تتعاطى مرة اخرى مع المفاهيم الجديدة التى تخدم قضايا التقدم والرقى وصار بامكان المواطن العربى الذى يعيش فى

أقصى الدساكر والقرى ان يهتدى بفطرته السليمة إلى الافكار النافعة التى تحقق له الخير والنجاح.

إن هذه الافكار الجديدة لم تأت لتخاطب شعبا بدائيا لم ينل أى نصيب من الحضارة، وانما جاءت تخاطب مواطنا اختزنت ذاكرته إرثا حضاريا أنار ظلام الدنيا خلال اكثر مراحل التاريخ تخلفا وجهالة، فلم يكن غريبا بعد ذلك ان يحقق هذا المواطن تواصله مع مفاهيم التقدم والحضارة بعد فترة انقطاع فرضتها عوامل خارجية. ان قضية مثل قضية حرية المرأة وخروجها إلى الحياة وحقها فى التعليم كانت انجازا حضاريا بدأ منذ بدأت تباشير الدعوة المحمدية التى حاربت الجهل والظلام ووأد البنات. ولقد عرف تاريخ الحضارة الاسلامية اسهاما للمرأة العاملة والمرأة العالمة والمرأة الشاعرة والمرأة المجاهدة يفوق اسهامات النساء فى بلدان لم يصلها نور الحق والايمان. فلماذا يكون غريبا بعد ذلك ان تعود الامور إلى وضعها الطبيعي؟

ما زلت اذكر أول مرة رأى فيها اهل قريتنا المذياع. كان المذياع قبل أن نراه رأى العين مجرد إشاعة يتناقلها العاملون بالمتصرفية عن وجود جهاز غريب فى بيت "المستر تاور" الحاكم الانجليزى لقريتنا، لكن أحدا لم يستطع أن ينقل صورة واضحة عنه، إلى أن قرر أحد المواطنين الموفدين من المدينة للعمل بالقرية كمشرف على محطة الكهرباء الجديدة أن يحضر معه مذياعا، وما إن سرى الخبر فى القرية حتى توافد على بيته الأطفال والصبيان يزدحمون وينصتون للصوت الغريب الذى يصدره الجهاز، ثم انضم رجال كبار إلى هذا الزحام، واحتراما لهم خرج الرجل يحمل الجهاز بين يديه ويضعه فوق كرسى أمام البيت فجلسنا صغارا وكبارا فوق الأرض صامتين نرقب باندهاش هذه المعجزة فى حين تولى الرجل إدارة الأزرار بحثا عن محطة تذيع باللغة العربية وكانت أكثر المحطات وضوحا التى صادفها محطات تذيع بلغة أجنبية حتى ذهب فى أذهاننا أن هذا الاختراع الأجنبى لا يعرف لغتنا ولا يستطيع التقاطها أو إرسالها، ثم فجأة سمعنا كلاما عربيا ومذيعا يقدم إحدى المطربات لتغنى أغنية ما زلت أذكر مطلعها " ما اريدو وا

ما اريدو ". وتهللت أساريرنا وتبادلنا نظرات السعادة والفرح لأن الجهاز يتكلم العربية وسألنا صاحب الجهاز أن يشرح لنا ما تعنيه السيدة بكلماتها خاصة كلمة " ما اريدو " التى لم تكن مألوفة لدينا بالطريقة التى نطقتها بها. فأجاب بأن المطربة تتحدث عن إنسان مريض، وأن حرف الضاد غالبا ما يتحول على ألسنة المطربات إلى "دال" ولذلك فإن ما قصدت قوله هو " مريض وا مريض " وهى تتمنى لهذا المريض الشفاء والصحة.

ولعله أراد تحريف معنى الأغنية عامدا لكى لا يثير حفيظة بعض الحضور ممن وقفوا يستمعون إلى كلماته وينظرون بريبة إلى جهازه فبالغ فى إسناد الخصال الحميدة إلى مذياعه.

حدث هذا فى أواخر الأربعينات ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى حقق المذياع انتشارا واسعا وأصبح ملمحا من ملامح كل بيت فى القرية، وتوالت بعد ذلك الاختراعات التى دخلت بيوت القرية من آلات التصوير إلى آلات التسجيل إلى جهاز التلفزيون ثم جهاز الفيديو ثم آلة التصوير

التليفزيونى وها نحن الآن ندخل مرحلة الهوائيات التى تلتقط الإرسال القادم عن طريق الأقمار الصناعية.

لقد جاء العصر الحديث بانجازاته وايقاعه وانماطه السلوكية يقرع ابواب القرية العربية ويخرجها من عزلتها ويمزق عنها الاغلفة التى ظلت تلتحف بها لمئات السنين. وعلى مدى العقود الثلاثة أو الاربعة الماضية شهدت الحياة فى القرية جملة من التحولات التى هددت بانقراض الكثير من اساليب العيش القديمة وليس بالضرورة اعتبار ما جاءت به هذه الانجازات الحديثة هو خير كله، فلا شك ان رحلة التحولات والتغيير يستصحبها الكثير من المشاكل التى نحتاج على الدوام إلى جهود ورعاية مؤسساتنا التربوية والاجهزة المعنية بالتوجيه والارشاد والتوعية.

يبدو مثيرا ومدهشا مراقبة هذه التحولات التى تطرأ على مفاهيم وافكار ومعتقدات آمن بها الناس وتوارثوا الايمان بها على تعاقب الاجيال، ثم جاءت هذه المرحلة

التاريخية الحافلة بالوقائع والاحداث والانقلابات الاجتماعية لتحدث زلزالا فى المفاهيم والافكار.

ولقد نشأت فى قرية كانت تبالغ فى تقدير غطاء رأس الرجل واحترامه سواء كان هذا الغطاء طاقية أو طربوشا أو عمامة أو عقالا، وكانت تعتبر من العار أن يمشى الرجل فى الشارع وهو حاسر الرأس، لأن ذلك معناه زندقة ومروق على تقاليد المجتمع وأعرافه. ولذلك فإن أحدا لم يكن يجرؤ على أن يتخلى لحظة واحدة عن غطاء رأسه بما فى ذلك الأطفال، فكل أهل القرية يمتثلون لهذا التقليد الذى توارثوه عن آبائهم وأجدادهم ويذعنون له دون نقاش.

ونشأ حول هذا الاعتقاد تراث أدبى من الأمثال والأشعار الشعبية التى تشيد بهذا الغطاء وتضعه صنوا للشرف والكرامة. واعتبره أهل القرية واحدا من المسلمات الكثيرة التى ينشئون عليها دون سؤال عن جدواها أو مناقشة الحكمة من هذا التبجيل والتكريم الذى تمنحه التقاليد للطاقية دون غيرها من قطع اللباس الاخرى. فابناء القرية مثلا - وبخاصة الاطفال - كانوا يمشون حفاة عبر الدروب المتربة ويخوضون باقدامهم الحافية المستنقعات الناشئة عن هطول

المطر دون ان يجدوا تبكيتا أو تأنيبا أو تحذيرا من الامراض والاضرار التى تلحق بهم نتيجة هذا السلوك.

وتتساءل بينك وبين نفسك: ألم يكن من الاجدى ان يذهب هذا التكريم إلى الحذاء باعتباره وعاء للقدم يحفظها من لدغات الافاعى والعقارب قبل أن يحفظها من البرد والاشواك والمسامير الصدئة؟ وتقول تعليلا لهذه المفارقة ان للموضوع صلة بطبيعة المناخ فى هذه المنطقة فضربة الشمس اكثر خطرا من كل الضربات الاخرى، وامراض الرأس اكثر خطرا من امراض القدم، ولابد ان الذاكرة الشعبية اخترعت هذه الحيلة لحفظ النوع وارغام اهل المنطقة على الاحتفاظ برؤوسهم مغطاة ضمانا للسلامة والنجاة.

ثم ترحل عن القرية وانت صبى صغير وتعود اليها بعد سنوات قليلة لتكتشف ان اغلب اهلها يمشون فى الشوارع والاسواق حاسرى الرؤوس، وان هذا اللباس فقد فى سنوات قليلة تلك الهالة من المهابة والوقار التى كانوا يحيطونه بها وانك انت شخصيا تعود إلى قريتك حاسر الرأس دون أن تشعر بالخزى الذى كنت ستشعر به لو ان امرا كهذا حدث منذ سنوات مضت. وتتأمل هذا التغيير السريع محاولا فهم

الظروف الاجتماعية والملابسات التاريخية التى اسهمت فى احداثه وتكتشف ان لهذا الاكبار الذى كانت تمنحه القرية لغطاء الرأس سببا نضاليا. فلقد جاء الغزاة الاجانب ذات يوم إلى هذه البلاد واشتد الصراع بينهم وبين اهلها وتحول اللباس الوطنى، وغطاء الرأس اهم رموزه، إلى عنوان للشخصية الوطنية التى تخشى على نفسها الذوبان والانسحاق تحت اقدام الغزاة، واحيط غطاء الرأس بهذه الهالة من الاكبار والتبجيل لكى لا يسقط اهل البلاد ضحية المخططات التى تسعى لطمس شخصيتهم عن طريق تقليد الاجنبى ومحاكاته.

وما ان تحقق الاستقلال وانتهى الغزو الخارجى وزال حكم الاجنبى حتى رفعت الذاكرة الشعبية حظرها على الرؤوس العارية وفقدت الطاقية تلك المكانة الرفيعة التى جاءتها عن طريق المصادفة التاريخية.

غادروا قراهم وعائلاتهم الفقيرة وجاءوا إلى المدينة ينتسبون إلى القسم الداخلى باحد المعاهد الحكومية، سعداء بالطعام المجانى وقطعة اللحم السابحة فى طبق الفاصوليا،

فهو غذاء لا يجدون مثله فى بيوتهم. ثم يغادرون بعد ذلك فصول الدراسة وعنابر النوم بالقسم الداخلى إلى العالم الواسع بصراعاته وسباقاته يبحثون عن الالتقاء بفرص الرزق والكسب، فتنقضى بضعة اعوام وتتفرق بهم السبل ومسالك الحياة، ولانك كنت واحداً منهم وتقاسمت وجبة الفاصوليا معهم فقد حافظت على علاقة متوازنة مع عدد منهم ممن كانوا يشاركونك عنبر النوم. وتلتقى بواحد منهم فإذا به مازال بعد هذه الاعوام موظفا كتابيا بمصلحة الاملاك الحكومية يركب الحافلات العامة حاملا معه سلة الخضار التى يعود بها إلى البيت، بينما صار زميله الآخر صاحب نفوذ وثروة تنشر الصحف اخبار صفقاته العالمية وتتحدث عن حفلاته التى ينقل اليها الضيوف بطائرة خاصة.

لقد بدءوا جميعا بداية واحدة، وجاءوا من بيئة ريفية فقيرة ونالوا تحصيلا علميا متساويا، فما الذى حدث بعد ذلك حتى جعل احدهم يستخدم الحافلات ويستخدم الثانى الطائرة الخاصة. هل هو الذكاء، ولكن هذا الزميل القديم الذى تلتقى به عند محطة الحافلات وهو يحمل بطيخة بين ذراعيه كان اكثر موهبة وتألقا وذكاء ودعابة. لعله الاجتهاد أذن، ففى

حين ظل احدهما خاملا كسولا، استطاع الثانى ان يشقى ويتعب حتى حقق هذا النجاح. ولكن أى شقاء هذا الذى يصنع للانسان ثروة بهذا الحجم ان لم يكن الامر كله خاضعا للصدفة العشواء التى تأتى فترفع اقدار بعض البشر وتترك الآخرين ينتظرون فوق رصيف الحياة. انها ضربات الحظ الكبرى التى تصنع من اثنين جمعتهما بداية واحدة فقراء واغنياء. ومهما تحدثنا عن القوة الداخلية التى يملكها الانسان فتقوده إلى النجاح والثراء أو يفتقر اليها فيمنى بالفشل والفقر. ومهما تحدثنا ايضا عن الالتزام الاخلاقى الذى قد يتيح لإنسان تحلل من التزاماته ما يتيحه لانسان اراد ان يعيش مستقيما ومخلصا لمبادئه الاخلاقية، فان مثل هذا التفاوت والتباين بين الاثنين يجعلك تقع فى حيرة كبرى، لأنك تعرف اناسا ظلوا مع كل تحللهم الاخلاقى لصوصا صغارا يتحايلون على الهروب من دفع تذاكر الحافلات ولم يصلوا إلى مثل هذا المجد والثراء الذى وصل اليه رفيقك القديم. إن الأمر يعنيك أنت أيضا، ومهما كنت راضيا عن حياتك البسيطة فأنت لا تكره أن يكون لك رصيد يتيح لك رؤية متنزهات العالم، فلماذا اذن يحدث هذا التفاوت بين شركاء عنابر النوم

واطباق الفاصوليا. تجتهد فى البحث عن سبب وتحاول ان تصل إلى فهم لدوافع هذا التفاوت. انك تعرف الاثنين، وتلتقى بهما لقاء الرفاق القدامى الذين عاشوا حياة مشتركة. ولذلك فانت اكثر الناس قدرة على الحكم بينهما والنفاذ إلى حقيقة كل منهما. وتكتشف ان صاحبك الغنى صار ينتمى إلى عالم مليء بالخصوم والاعداء الذين يصنعهم التنافس ويصنعهم النجاح، بينما بقى الزميل الاخر بعيدا عن مثل هذه العداوات والخصومات، بل هو لا يجد الا العطف والتجاوب مع مشاكله من قبل الآخرين، بينما لا يجد الأول تعاطفا أو تجاوبا من احد لان الجميع يعتبرونه رجلا قويا لا يحتاج إلى العطف وانما يشمل بعطفه الآخرين. ان الطريق إلى تلك الطائرة الخاصة التى اشتراها لنقل ضيوفه لم يكن سهلا، فقد شق طريقه إلى هناك بقوة وثبات وقدرة على قهر العقبات ومصارعة الاعداء، وهو الان وبعد ان وصل إلى هذه المكانة لا يريد شيئا الا ان يعود مواطنا بسيطا هانئا آمنا يشترى سلة الخضار وينتظر الحافلات العامة، ولكنه للأسف الشديد لا يستطيع. بينما تجد الصديق الاخر يمتلئ ضجرا ونقمة على حياته الفقيرة، وضيقا من انتظار الحافلات وحمل

سلة الغلال، متمنيا ان يعيش يوما واحداً يشبه الايام الاسطورية التى يعيشها زميله القديم. كلاهما يحسد الآخر على نعمته، ويتمنى ان يحقق سعادة مثل سعادة صاحبه، وتذكر انك قرأت لكثير من المشاهير والاغنياء واصحاب المواقع القيادية فى دنيا المال والاعمال والسياسة والاقتصاد يعبرون فيها عن ضجرهم من اسلوب حياتهم ويتمنون العودة إلى الحياة البسيطة الهانئة التى يعيشها مواطن مغمور. وتصل من خلال ذلك كله إلى فكرة جميلة لا تحتاج إلى هيئة دولية تتبناها وهى تخصيص يوم فى العام نسميه "اليوم العالمى لتبادل المواقع" بحيث يحقق الاثرياء والمشاهير رغبتهم فى حياة الزهد والتقشف والابتعاد عن الاضواء ويحقق فيه الفقراء والمغمورون من امثالنا رغبتهم فى الشهرة والثراء.

- ٤٣ -

كان الجبل كتلة من صخور بركانية فى لون الرماد.

ووسط أرض الجبل القاحلة، الصخرية، الجرداء كانت هناك شجرة تين خضراء تتلألأ خضرتها تحت اشعة شمس

الصيف، وتضرب جذورها بين الصخور وتمد اغصانها إلى السماء، وتنشر ظلالها فوق ارض الجبل، وتمنح ثمارها عطاء سمحا وهبة كريمة للطيور وعابرى السبيل.

كان المشهد غريبا.

وسط هذه اللوحة السرمدية التى تمثل عقم الحياة وعدميتها، وهذه الارض المليئة بالندوب والحروق والاخاديد والمغارات والاحجار البركانية التى لابد انها بدأت مع بداية الكون، انبثقت تلك الشجرة لتمثل رمزا للخصوبة والحياة وتحديا للعقم والفناء.

كان الجبل خاليا من اية اعشاب أو نباتات أو زهور، خاليا من أية اشجار مثمرة أو اخرى لا ثمار لها، سوى شجرة التين تلك التى انتصبت فوق قمته مثقلة بثمارها وأوراقها وظلالها وعبيرها. شجرة متفردة بالثمار، لا احد من اهل القرية التى تجاورها يعرف متى ظهرت، ولا احد يدرى لها صاحبا، ولا كيف استطاعت وسط هذه البيئة القاحلة والصخور السوداء ان تجد تربة صالحة لجذورها أو ماء يرويها ويغذيها ويمنحها الخضرة والنماء. وكان الرجل الذى يعمل سقاء ومؤذنا بمسجد القرية اكثر الناس ترددا

عليها وتبركا بها وكثيرا ما رآه الناس يقضى أوقاتا فى ظلها ويؤدى فريضة الصلاة بجوارها ولعله هو الذى يقوم بتذكيرها حتى تلد تلك الثمار الغزيرة الطيبة، إلى ان صار بعض الناس يذكرونها مقرونة باسمه، وظلت ثمارها برغم عناية هذا الرجل مشاعا لكل العابرين.

وكان الصعود اليها فوق قمتها العالية تمرينا نقوم به فى مواسم الصيف ونضوج ثمار التين، ولكنه كان تمرينا مرهقا، شاقا، مضنيا بالنسبة لأطفال صغار فى العاشرة من اعمارهم أو دون ذلك، تحرقنا الشمس وتجرحنا الصخور وتتمزق ثيابنا حتى نصل اليها ونقطف ما نضج من ثمارها، واحيانا تكون خيبتنا كبيرة عندما نجد ان أحدا قد سبقنا اليها واقتطف ما استوى من ثمارها واضاع علينا التضحيات الجسيمة التى قمنا بها فى سبيل الوصول اليها، وفى مقدمة هذه التضحيات ما سوف نلاقيه فى بيوتنا من تأنيب وتوبيخ عندما نعود بهذه الثياب الممزقة وهذه الخدوش التى تملأ الاذرع والسيقان.

وكانت المكافأة الوحيدة التى نحققها هى ما يملأ قلوبنا من دهشة لوجود تلك الشجرة بين الصخور، حيث يقف

الواحد منا متأملا هذه الاعجوبة الصغيرة من عجائب الكون دون ان يهتدى إلى تفسير. إذ لو أن أرض الجبل كانت صالحة لغرس مثل هذه الاشجار فلماذا لم يغرس الناس اشجارا مثلها ويحولون هذه المنطقة إلى بساتين من التين وهم الذين يشكون التصحر والجفاف. ولذلك فقد بدا لنا وجودها معجزة تملأ الوجدان بشتى المشاعر الغامضة التى تعترى طفلا يلتقى باسرار الكون وعجائب الطبيعة ويتعرف بإدراكه البريء إلى جلال الخالق.

لا أدرى لماذا اذكر الان تلك الشجرة أو تلك المغامرات الصبيانية التى كنا نقوم بها من اجل الوصول اليها. انها جزء من عالم قديم تقوض وانتهى، والحنين اليه لا يحتاج دائما إلى شيء يثيره أو يحركه، فهو يأتى دونما اثارة أو تنبيه. ولكن هاجسا غامضا يقول لى ان بين كل معالم الطفولة وعوالمها التى اندثرت وغرقت تحت امواج الزمان، فان شجرة التين تلك لا تزال حيث هى، تنتصب شامخة، غزيرة الاغصان والفروع والثمار، بين تلك الصخور البركانية السوداء، وكأنها كائن اسطورى يتغذى بمياه البراكين.

الخوف من الليل والظلام ورثناه من عصور ما قبل الكهرباء، اخذناه من اهلنا واورثناه لأطفالنا الذين نحذرهم من الظلام ونمنعهم من البقاء خارج البيت بعد مغيب الشمس خوفا عليهم من الليل. ولقد بقيت وفيا لتعليمات الاهل التى تحذرنى من الليل فترة من الزمن بعد ان ابتعدت عن الاهل والبيت، ولكننى اكتشفت فيما بعد ان هذا التحذير سوف يأكل أزهى ساعات العمر اذا ما بقيت محافظا عليه. فما الذى يبقى من العمر اذا اكتفيت بنهار تأكله فصول الدراسة أو تأكله بعد انتهاء مرحلة الدراسة ميادين العمل ومكاتب الوظيفة، وهكذا تحول ذلك الرعب من الليل إلى شغف به، وحب له، وحرص على أن اجعله مناسبة اقتص فيها لنفسى من عناء وشقاء النهار. ولكنه تحول هو ايضا إلى شقاء وعناء عندما أدركتنى حرفة الأدب وتصورت ان جنيات وادى عبقر لا تستيقظ الا عندما ينام البشر، فاورثنى الحب للأدب حبا لليل، وتحولت علاقة الخوف والجفاء إلى علاقة ود وعمل ورفقة ومؤانسة، اقضيه مع كتبى، أو اخرج متجولا لأرى المدينة بمظهر جديد

يختلف عن مظهر النهار، الشوارع التى يغمرها الهدوء اكثر اتساعاً وبهاء، وابنية المدينة التى يغلفها الظلام تبدو وكأن العالم يعود إلى عناصره الأولى كتلة هلامية لا شكل لها، وعندما اعود للكتابة أو القراءة يسحرنى صمت الليل واصواته التى تختلف عن اصوات النهار. ذهب اهل البيت إلى مراقدهم وتوقف الهاتف عن الرنين، وتوقف جرس البيت عن الرنين، وتوقفت الاصوات التى تصدر عن العاب الاطفال واجهزة المذياع والتلفاز أو التسجيل. توقف الهدير الذى يأتى من الشارع وتوقف صخب الاهل داخل البيت فاجلس لانتظر غناء الجنيات لكى يتصاعد من وادى عبقر أو رنين الاوتار يأتى من ربات الفنون فوق جبال الأولمب ويمضى الليل دون أن أسمع غناء ولا رنيناً ومع ذلك أواصل السهر.

وليل الليل هو منتصف الليل وما بعده، اما ما قبله فهو ينتمى إلى النهار ويستعير اساليبه وصخبه، واذا كان النهار ملكاً لمؤسسات تستخدمنا، أو ملكاً لاعمال ندور فى طواحينها، فان الليل لنا، انه الشيء الذى تبقى لنا من معارك الحياة التى نخوضها أثناء النهار، هذا الليل الذى لا يسرقه

منا العمل أو الرزق أو اداء الواجبات الاجتماعية، انك تغضب لان صديقا تأخر عن زيارتك ولكنك تغضب اكثر لو انه جاء يدق بابك بعد منتصف الليل، وتغضب لو انك انتظرت هاتفا وطال انتظارك دون ان يأتى، ولكنك تغضب كثيرا لو ان هذا الهاتف جاء فى آخر الليل، ولسوف تفرح كثيرا بزائر يحمل لك خبراً طيبا ولكن الخبر الطيب يتحول إلى كدر وازعاج لو جاءك به فى ساعة متأخرة من الليل، ولذلك فان الليل هو الزمن الذى تبقى لنا من أزمنة الالتزامات والواجبات والاعمال وقضاء الحوائج والمصالح، ومن اجل ذلك نغضب ونثور اذا اعتدت عليه واحدة من هذه الواجبات والالتزامات، ان اكثر الحكومات ظلما هى التى تقبض على خصومها أثناء الليل فتدينها المجتمعات المتحضرة وتنعت اصحابها بأنهم زوار الليل، وهى اقسى تهمة تلحق بأية حكومة، لأنها انتهكت حرمة ليل المواطنين وهى جريمة اكثر بشاعة من جريمة الاعتداء على حريتهم فالليل له حرمته التى لا يجب انتهاكها، وهو ملك لنا وليس ملكا لسوانا، ولعل هذا الاحساس بأنه ملكنا هو الذى يجعل له هذه الحميمية، ويجعلنا نحرص على الالتحام والالتصاق به،

اننا ننسلخ عن انفسنا فى النهار، نبتعد عنها، نؤجر انفسنا للرزق والعمل ولقمة العيش. ولا نعود لنلتصق بانفسنا الا ليلاً، نتحرر من قبضة العمل وربقة الاسر فى شباكه وطواحينه، نعود لانفسنا، ترغمنا ظلمته ونحن نضع رؤوسنا فوق الوسائد على ان ننظر فى انفسنا، لقد اختفت الآن كل المشاهد التى تعودنا ان نعلق ابصارنا بها، اختفت كل الاصوات التى تسرق انتباهنا أو نتخذها ذريعة للهروب من مواجهة انفسنا، ولم يبق لنا الا عوالمنا الداخلية ننظر اليها ونتجول فى ردهاتها وساحاتها.

ولذلك فان الجراح يوقظها الليل ولا يطيبها.

المواجع يظهرها الليل ولا يخفيها.

الآلام يحركها الليل ولا يسكنها.

كل الهواجس والمشاعر والانفعالات الدفينة تنطلق من اقفاصها، ولهذا فان المغنى يجعل الليل لازمة لغنائه وهو يتذكر أوجاع الهجر والفراق ولوعة العشق والصبابة.

حتى شهرزاد اميرة الحكايات الشرقية تتوقف عندما ينتهى الليل عن الكلام المباح لان مثل هذه الرؤى والحكايات والتداعيات لا يمكن ان يوقظها الا الليل، فكيف الحال اذن مع

كاتب حكايات مثلى لا يطمح إلى ان يصل إلى ما وصلت اليه شهرزاد. كيف يمكنه ان ينسى قدرة الليل على كشف الاسرار وبعث الذكريات وايقاظ شخصيات الخيال التى تأتى مع الظلام باحثة عن كتاب يصنعون لها حياة تبقى وتدوم اكثر من حياة البشر.

فمرحبا بك دائما أيها الليل، لأنك انت الذى تبقى لنا بعد ان اخذوا منا النهار.

أنظر متحسرا متأسفا إلى كميات الفواتير وادرك ان للتقدم ثمنا غاليا يعادل كل ما دفعته وما سأدفعه فى حياتى من فواتير، كما ادرك ايضا ان لهذه الفواتير علاقة بكل ما صرنا نعرفه من علل عصرية مثل الارق والقلق والكآبة وامراض السكر والقرحة وضغط الدم وغير ذلك من امراض الروح والبدن التى لم نكن فى القرية نسمع لها ذكرا.

- ٤٥ -

لم يكن أحد من أهلنا فى القرى التى عرفت طفولتنا قد اعترف صراحة امامنا بأنه شاهد الغولة، ومع ذلك فان كلامهم لنا كان يمتلئ بالتحذير من هذه الغولة. يهددوننا بها

اذا تأخرنا فى العودة إلى البيت، ويهددوننا بها اذا تأخرنا فى كتابة الواجب المدرسى، ويهددوننا بها اذا لم نستجب لاوامرهم أو غامرنا باللعب فى الشارع دون اذنهم.

والطفل لكى لا تأكله الغولة يجب ان يسمع الكلام، ولكى لا تأكله الغولة يجب ان يشرب الدواء المصنوع من ثمار الحنظل ويأكل الطعام المخلوط بالاتربة.

ولكى لا تأكله الغولة يجب ان يمتنع عن تسلق الاشجار للفوز بشيء من ثمارها أو العبث بمحتويات البيت بحثا عن قطعة سكر خبأها عنه.

الغولة، الغولة، الغولة، كل شيء يبدأ بالغولة وينتهى بها، تأتى فى الليل وتأتى فى النهار، لليل غولته وللقيلولة غولتها، ولا نجاة للاطفال امثالنا الا بالسمع والطاعة والامتثال لتعليمات أمنا الغولة.

هكذا نشأنا فى هذه البيئة القروية التى لا تؤمن بغير الغولة اسلوبا لتربية الابناء، إلى حد أنه يصدق على أمثالنا القول بأنهم أبناء الغولة، لاننا بفضلها قرأنا دروسنا واكلنا طعامنا وشربنا الدواء الذى ابعد عنا العلل والامراض حتى كبرنا واصبحنا رجالا، وكان يتهيأ لنا ان الغولة تقيم فى كل

ركن من اركان البيت، وتتربص بنا خلف كل شجرة وكل منعطف وكل بناء، ثم نكبر ونكتشف ان الغولة كانت مجرد لعبة يهددوننا بها.

كائن خرافى، اسطورى، لا وجود له الا فى اذهاننا التى عبأتها تلك التربية بالغيلان.

ندرك على وجه اليقين انه ليست هناك غولة فى الدنيا، ولكن شيئا فى نفوسنا يأبى التصديق، لقد التصق ذلك الكلام بعقلنا الباطن، وصار جزءا من تكويننا النفسى، وأنشأ غولة ذات قرون وانياب تقيم اقامة دائمة فى اعماقنا ولا نغادرها إلى الابد، ومهما حاولنا نفيها وطردها فانها تبقى فجأة داخل تلك المناطق السرية فى النفس البشرية التى لا يلحقها التبدل والتغيير برغم كل المدارك والتجارب والخبرات والمعارف التى اكتسبناها اكتسابا بأنفسنا، لا عن طريق ما تسرب منها إلى نفوسنا بواسطة المنشأ والتربية والعقائد الموروثة.

كبرنا ورأينا غيلانا كثيرة اخرى تظهر فى الضوء والظلام وتقتنص ضحاياها من بين صفوفنا ولكن مع ذلك كله فان خوفنا الاكبر نحتفظ به لتلك الغولة الخفية المجهولة التى لا تراها العين ولا تدركها الحواس ولكنها مبثوثة فى ارجاء

الكون تطالبنا بأن نشرب عصير الحنظل كل يوم والا الحقت بنا عقابا كبيرا.

ولا أدرى اذا ما كانت الغولة ما تزال حتى يومنا هذا تتولى تربية الاطفال فى قرى وارياف الوطن العربى كما كانت تفعل سابقا، وتشرف على نومهم ودراستهم والعابهم، وترغمهم على تناول الطعام والدواء وكتابة الواجبات المنزلية أم ان هذه المفاهيم البدائية فى التربية التى جاءت من عصور ما قبل انتشار التعليم احيلت إلى التقاعد وفقدت نفوذها وسيطرتها على اذهان الناس فما عاد احد يهدد بها اطفاله ويعهد اليها بتربيتهم وتعليمهم.

لقد كان جيلنا حلقة فى سلسلة طويلة من الاجيال التى تربت على هذه الاساليب ووسائل القمع التى تستمد قوتها وسطوتها من قوة الخرافة التى تغلغلت فى وجدان الناس فصاروا يدينون لها بالولاء ويجدون فيها تفسيرا جاهزا لكل الاشياء الغامضة التى لا تهتدى مداركهم لحل الغازها.

أنبتت هذه التربية فى نفوسنا عقلية خرافية تؤمن بالغيلان وتخشى العفاريت وتعجز عن تحقيق حضور فاعل

فى عصر جديد يعتمد العلم ويتخذه سبيلا لانجاز التطور والتقدم ومجابهة التحديات.

اننا نخطئ كثيرا عندما نظن ان العلم مجرد نموذج أو صيغة يمكن ان نستعيرها أو نستلفها ثم نبدأ من فورنا فى دارستها وتقليدها وتقديم انتاج يماثلها، انه قبل ان يكون صيغة أو نموذجا أو Formula كما يقول التعبير الاجنبى، فهو جذور تربوية وبناء فكرى وعقلية تحررت من سطوة الماضى وانشغلت بالحاضر والمستقبل.

تحررت من سيطرة الغيلان والعفاريت وآمنت بانجازات العقل القادر على الابداع والابتكار وصناعة الغد الأجمل.

عقلية جديدة تستمد من ايمانها با قوة على العمل الذى يحب ا ان يراه، وأرضية جديدة بأبنية تحتية جديدة تبدأ من العائلة إلى ان تصل إلى المؤسسات التعليمية والثقافية والادارية ومختلف المرافق والاجهزة التى تشرف على ادراة المجتمع.

بهذه الروح وحدها يمكن ان نحقق انعتاقنا من غيلان التخلف ونبدأ مسيرتنا باتجاه الآفاق المفتوحة على انجازات العلم وحقول الابداع والمعرفة.

- ٤٦ -

بقدر ما يكون الالتقاء بأصدقاء قدامى مناسبة للفرح والابتهاج، فهو امر يبعث فى أغلب الاحيان على الشجن والأسى. نلتقى بعد فراق اعوام فنكتشف ان مرض هذه الايام هو الشيخوخة المبكرة، حتى بدا لى ان هذا المرض هو المرض العربى الاكثر انتشارا بين طلائع المثقفين والمشتغلين بالفكر والسياسة، نفترق ونحن مازلنا فى مراحل الشباب الأولى ثم نلتقى بعد عدة اعوام قليلة وقد غمر رؤوسنا بياض الشيب، أو تساقط الشعر فرارا من مجيء هذا الشيب قبل اوانه، وتجد رجلا عجوزا يأتى لتحيتك بالعناق والأحضان فلا تدرى ماذا تفعل لأنك تذكره ولا تذكر اين التقيت به، وتبدأ فى فك الخطوط والتكوينات الغريبة التى ارتسمت على ملامحه حتى تكتشف انه احد اصدقائك الحميمين الذين ابتعدت عنهم، فتعاود التحية والعناق معتذرا

عن هذا الابطاء فى التعرف عليه، ذاهلا لهذا التغيير الذى طرأ على شكله وملامحه. لقد تركته منذ اعوام مضت فتى يتحدى فتوة طرفة بن العبد، فما الذى جرى؟

- أضاعونى وأى فتى اضاعوا.

يقولها ساخرا، فيتردد الصدى فى صدرك حزينا مؤلما، وتتذكر ما قاله مارسيل بروست عن مثل هذه المناسبات عندما أطلق عليها وصفا يليق بها، فقد رآها تشبه الحفلات التنكرية التى يأتى اليها الناس بعد ان وضعوا اقنعة على وجوههم، وهى حقا كذلك، فكان هؤلاء الاصدقاء الذين التقوا بعد الغياب يشتركون الآن فى لعبة الاهتداء إلى اصحابهم من خلف الأقنعة، اقنعة البسها لهم الزمن أو البستها لهم المحن، فهى للأسف اقنعة ثابتة فوق الوجوه لا تزول بمثل ما تزول اقنعة الحفلات التنكرية، مناسبات نلتقى فيها بهؤلاء الاصدقاء الذين يتحولون إلى مرايا نرى فيها انفسنا، لقد تآلفنا مع ظاهرة الشيخوخة المبكرة التى تداهمنا فصرنا لا نراها على حقيقتها، ولا نحس بوطئها الا ونحن نلتقى بمثل هؤلاء الاصدقاء، نعاود النظر إلى انفسنا، نهرب إلى حجراتنا منفردين بأنفسنا نبحث عن مرايا حقيقية نتأمل فيها وجوهنا،

نحارب هذا الخوف الذى يعترينا، ونحاول ان نخدع انفسنا قليلا، لقد اهملنا القيام بتمارين الصباح الرياضية، اهملنا المشاركة فى الأندية التى تقدم دروسا فى اللياقة البدنية، اهملنا اجازة صيف نقضيها فى السباحة تمرينا لعضلات القلب وتجديدا للدورة الدموية، اهملنا ان نضع لائحة لطعامنا نلتزم بها فتحفظ لنا شبابنا وصحتنا، أهملنا القيام بزيارة كل أسبوع إلى حمامات السونا وجلسات التدليك، أهملنا وأهملنا وأهملنا، ولكن هل هذا حقا هو السبب؟ وهل يتوقف زحف الشيخوخة المبكر اذا وضعنا برنامجا لمحاربته والنضال ضده؟ واذا كان هذا صحيحا فهل بامكانك ان تتحرر من التزاماتك الاخرى لكى تتفرغ لهذه الانشطة التى تحتاج وحدها إلى تكريس عمر بكامله لها؟ واذا استطعت ان ترغم نفسك على ان تصبح مثل "البريمادونا" التى لا يشغلها شيء الا لياقتها البدنية، فهل ستنصرف عنك كل الهموم والمشاغل الأخرى؟ وتنتهى من هذه الحسابات إلى ترك الأيام تجرى كما يعن لها، وعساكر الشيخوخة تزحف دون حرب أو مقاومة، واذا كنت قد عشت طفولة بلا طفولة، وعشت شبابا بلا شباب، فلن يضيرك شيئا ان يزحف زمن الشيخوخة

ويأكل ما تبقى من ايام الشباب. واذا كان ثمة ما يواسيك فها انت ترى رجالا اصغر منك سنا واكثر شبابا ومع ذلك فقد ظهرت على ملامحهم علامات الهرم اكثر مما ظهرت على ملامحك. تترك جلسة الأسى، وتدير وجهك عن المرآة، وتعود إلى المشاركة فى الكرتفال، والاستمتاع بلعبة الاهتداء إلى اصدقاء قدامى يضعون فوق وجوههم اقنعة لا تزول ولا تذوب.

- ٤٧ -

حضرت عددا من المؤتمرات والملتقيات الثقافة فى الاشهر القليلة الماضية، وكنت خلالها التقى باصدقاء قدامى مرت سنوات على أخر لقاء معهم، بعضهم ربطتنى به علاقات عميقة ومتميزة فكان اللقاء مصدر سعادة حقيقية تضئ تلك المصابيح المطفأة داخل القلب.

وكان أكثر ما يدهشنى عندما اخاطب صديقا من هؤلاء قائلا:

- لعلها أربعة أو خمسة أعوام مضت دون ان نلتقى، ما اسرع ما يمضى الوقت يا أخي !

فيجيبنى مصححا :

- لا بل هى خمسة عشر عاما.

ويذكرنى بالزمان والمكان اللذين شهدا آخر لقاءاتنا، ويعد على اصابعه السنين التى مرت فاذا هى فعلا كما قال، يدهشنى قوله واحاول ان اجد حنجرة تحمل ثقل هذه المفاجأة لأقول بها ما كان يقوله يوسف وهبى فى مسرحياته المأساوية:

- يا للهول!

فلا أجد غير صوت مخنوق وحنجرة لا تقوى على الصراخ، واحاول ان اجد تفسيرا لهذه الذاكرة التى تسقط من حسابها الأعوام فلم تستطع الاهتداء اليها، أزمنة باهتة تنزلق على سطح الذاكرة كما تنزلق على سطح الدنيا دون أن تترك اثرا، أو لعلها حيلة تلجأ اليها الذاكرة لمواجهة تشوهات الحياة وقسوة الأيام والظروف التى تمزق العلاقات وتفرق بين الناس، فلعبت بالزمن وحاولت مغالطته فى الحساب، وغالبا ما تكون الخمسة عشر عاما التى يشير اليها الصديق هى المدة التى تفصل بين أيام لقاء عشناها فى بيروت قبل أن يغمرها طوفان الحرب والظلام والتعصب، عندما كانت

بيروت مدينة اللقاء وعاصمة الإبداع والفكر والصحافة فى عالمنا العربى، لقد ظلت تلك الأيام قريبة رغم ابتعادها، مضيئة تتوهج فى الذاكرة بسبب السنوات المطفأة التى جاءت بعدها، وأحيانا كان القول يشير إلى آخر لقاءاتنا فى القاهرة عندما كانت مقرا لاتحاد الأدباء العرب واتحاد أدباء آسيا وافريقيا والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى كانت تجمعنا منتدياتها قبل أن تتأزم العلاقات بينها وبين محيطها العربى ويتراجع دورها الذى كانت تؤديه كمدينة اشعاع ثقافى ومركز جذب واستقطاب لكل العاملين فى حقول الأدب والفكر والفنون.

نتأسف كثيرا لهذه الأوقات العصيبة التى باعدت بيننا، وفرص اللقاء السريعة الخاطفة التى لا تظهر الا لتختفى، والزمن الذى يسرع الخطى ساحبا معه العمر إلى نهايته الحتمية، ونقف قليلا نتأمل لعبة الزمن، هذا الزمن الذى تمضى لحظاته بطيئة ثقيلة، ولكنها فى المحصلة النهائية خواء وفراغ، لحظات تتساقط تحت اقدامنا كأوراق الشجر اليابسة، فلا يكون الحصاد الا كومة من القش، الذى نحسه ونستشعره ونعيشه ونتعامل معه، لحظات صغيرة تومض

كالشرارات وسط الايام والاعوام الكربونية، نطل من شرفات البيوت فنجد ان عاما ينشر فى الافق مناديل وداعه ويتوارى خلف الافق، عاما لم نعشه كما نريد، ولم نحقق خلاله ما راود قلوبنا من رغبات وامنيات، نتأسف قليلا لرحيله المباغت الذى لم يمنحنا فرصة للقاء اكثر عمقا، ونلتفت بقلوبنا إلى العام الجديد.. فلاشك ان هناك اياما جميلة لم نعشها بعد.

- ٤٨ -

كان الحصول على وظيفة فى الحكومة يمثل بالنسبة لأهلنا ذروة الأمان من غوائل الزمن. فقد كانت أزمنة فقر وبؤس وعسف اجتماعى، وكان التعلق بجذاذة فى رداء الحكومة مصدرا وحيدا للنجاة لمن جاء إلى الدنيا لا يملك اطيانا ولا لقبا يدفع عنه الفقر. مورد ثابت ورزق يأتى إلى صاحبه مع نهاية كل شهر فى وقت نضبت فيه الموارد وضاقت فيه سبل الرزق، ومهما كان هذا المورد صغيرا وضئيلا فهو افضل من الوقوف على أبواب المجهول، ولذلك فقد أصبح الرجل الذى يلتحق بالعمل الحكومى فى وظيفة

صغيرة الشأن موضع مباهاة وتفاخر واكبار، وكانت اغانى الاعراس لا تشيد بأحد الا بهذا الموظف الحكومى الذى يضمن لعروسه ارزاً مسقيا بالدهن، ولا تجد الامهات مثلا أعلى يكون موضوع الاغانى التى يهدهدن بها اطفالهن الا هذا الموظف، ومرت تلك الأزمنة ببؤسها وشقائها وجاءت أزمنة اليسر والرخاء، وتفتحت الفرص أمام الناس للعمل فى مختلف المجالات التى تتيحها الحياة الجديدة، وبدأت بلادنا تعرف مهنا أخرى غير مهن المجتمع القديم، وبدأ الموظف الحكومى يتنازل يوما بعد يوم عن مكانته التاريخية، وتحول المرتب الثابت المحدود الذى يأتى آخر الشهر إلى علامة ضعف وهوان بعد ان كان سبيلا إلى العزة والأمان. لقد انقطعت علاقتى بأعراس الريف وحفلاته ولكننى لا اعتقد ان الغناء الذى يمجد الموظف الحكومى مازال موجودا، ولا أرى ان هناك اما عاقلة تحلم لطفلها بمصير كمصير الموظف الحكومى. لقد هبطت اقدار ذلك الموظف درجات فى السلم الاجتماعى، وشغلت هذه الدرجات فئات اخرى هى التى تصنع الأرصدة فى المصارف وتتمتع بالترف والثراء والجاه الاجتماعى، ولكن إلى أى مدى نستطيع ان نقول إن

ذلك الانسان الذى بقى محافظا على ولاءه للعمل العام موظفا أو مدرسا أو طبيبا فى مستشفيات الحكومة ولم يهرول لفتح دكانة لبيع العملة تجلب له المكاسب والثراء قد خسر الرهان؟

اننا نتحدث عن الكسب السريع والأرصدة التى تتكدس فى المصارف باعتبارها بعض مصادر الهناء والسعادة، وانا لن اخالف الاعتقاد الشائع وأقول انها ليست كذلك، ولكننا ننسى أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تكون هى أيضا مصدر سعادة للإنسان توازى مكاسب تجار العملة وأرصدتهم، ومن بين هذه الاشياء ان يكرس الانسان حياته لخدمة هدف عام يتجاوز حدود المنفعة الشخصية، وهذا هو ما يتيحه الكثير من أوجه العمل الوظيفى الذى يحافظ الانسان على أدائه رغم الإغراءات الكثيرة الأخرى، هذه نقطة تحسب له، والنقطة الثانية ان زميله الذى هجر الوظيفة إلى عالم المال والأعمال والتجارة الحرة غالبا ما يكتشف ان هذا العمل يريد منه حياته كلها، فينشغل به عن اهله وعياله ويكرس له كل جهده وليله ونهاره، بينما يستطيع الموظف الذى فرغ من اداء عمله خلال ساعات الدوام أن ينصرف لأهله وحياته وأصحابه دون أن تكون وراءه مضاربات وصفقات تشغل باله وتأكل وقته،

ولذلك فان هذا الموظف يستطيع ان يراقب اطفاله وهم يتدرجون من سن الرضاعة إلى سن الصبا يوما بيوم، وهى متعة غالبا ما نرى رجال الأعمال ينشغلون عنها باعمالهم واسواقهم وصفقاتهم.

هل ترانى اكتب هذه الكلمات لمجرد التسرية عن هذا الموظف المظلوم أو غيره من اصحاب الدخل الثابت المحدود من أمثالنا ممن فاتهم قطار الجاه والثراء وضربات الحظ التجارية؟ ربما، فالأمر قابل لكل الاحتمالات.

- ٤٩ -

عندما كنت فى بداية الستينات اكتب برنامجا صباحيا يوميا للاذاعة كان اهل قريتى "مزده" يستمعون إلى هذا البرنامج ويأتون لمعاتبتى عندما ازور القرية متأسفين لأننى لا اقيم اعتبارا لقريتى ولا اذكر اسمها مقرونا باسمى.

ومعنى ذلك أن المستمعين إلى هذا البرنامج سوف لن ينتبهوا إلى أن كاتبه من مزده. ويطالبوننى بأن أسرع باضافة "المزداوي" إلى اسمى، وفاء للقرية التى أنجبتنى وقدمتنى إلى الدنيا، وأسوة بما يفعله كتاب آخرون تذكر الاذاعة أسماءهم

منسوبة إلى بلدانهم مثل المصراتى، والزاوى، والزنتانى وغيرهم، وبرغم أننى لم أضف "المزداوي" إلى اسمى إلا أننى عبرت عن وفائى للقرية عندما استوحيت بواكير أعمالى القصصية من محيطها وبيئتها، ولا أدرى ما هو شعور اهل القرية عندما يسمعون ويعرفون أن ما اسمته مجلة "المجلة" الغزو الليبى الفنى، لعالم الموسيقى والغناء فى مصر اقترن باسم هذه القرية، فمؤسس هذه الموجة الفنية الجديدة التى لاقت قبولا فى مصر شاب من أبناء هذه القرية هو "ناصر المزداوي"، وهو فنان صاحب موهبة وثقافة واصالة وقدرة على تجاوز القوالب القديمة وتأسيس اغنية جديدة تستجيب لضرورات العصر وتزاوج بين التراث الموسيقى وبين التقنيات الحديثة المقبلة من الغرب مع استفادة من المؤثرات الشعبية فى هذا المجال، وله شريط بعنوان "غربة" يشهد له بهذا التفرد وهذه الأصالة. وعندما كان شريطة هذا يطبع بالملايين ويوزع فى مصر لم يكن ناصر قد ذهب إلى هناك، فقد سبقه اسمه وابداعه الفنى، ثم جاء من بعده عدد من الفنانين الليبيين الذين اسموا فرقتهم "المزداوية" نسبة إلى قريته وإلى اسمه واعترافا بفضله وفضل ألحانه التى بدءوا

بعزفها وتقديمها. وهكذا صار اسم "مزده" رمزا وعنوانا لهذه الظاهرة الفنية، وصار اسمها يحقق شهرة وانتشارا بفضل هذا الابن الذى لم ينس ان ينسب اسمه اليها، واغلب هذه الالحان التى لاقت قبولا واستحسانا هى من ذلك النوع الذى يسميه اهل الفن فى ليبيا "المورزقاوي" نسبة إلى المدينة التى كانت عاصمة الصحراء وملتقى القوافل القادمة من افريقيا والذاهبة اليها، وهى مدينة مرزق، ففى هذه المدينة امتزجت فنون افريقيا وفنون صحراوية واخرى عربية ومشرقية وعربية مغربية واندلسية وصنعت تراثا غنيا وخصباً، واصبحت نبعا لا ينضب من الالحان التى انتقلت عبر الذاكرة الشعبية من جيل إلى جيل حتى وصلت الينا.

وانكر ان احدى اشهر اغانى فرقة الخنافس "البيتلز" الانجليزية وهى اغنية "»ثورة«" كانت مقتبسة من هذه الالحان الشعبية الليبية، ولا ادرى كيف جاء بها اعضاء هذه الفرقة، ولكننى سمعت من بينهم من ينسبها خطأ إلى الفنون الهندية.

وهذا اللحن الذى صنع اشهر اغنيات "الخنافس"، ليس الا واحدا من آلاف الالحان القابلة للتسويق العالمى والتى يمكن ان تكسب ملايين الاصدقاء لفنوننا وتراثنا.

- ٥٠ -

ويمضى فى طرقات المدينة التى جاءها مهاجرا من قريته أو من وطن بعيد غير هذا الوطن، جاءها يحمل تاريخا وذاكرة ومشروعا لاعادة صياغة العالم، ولكن المدينة الكبيرة المكتظة بالبشر والمشاريع، والرازحة تحت اعباء تاريخها، المشغولة بأزماتها، لا تستطيع ان تنصت اليه أو تعبأ برسالة التنوير التى جاء يحملها.

إن لديها فائضا من الذكريات والاحداث والفواجع، وفائضا من الاحلام والاوهام والآثام والكوابيس التى تلقى بها كل ليلة إلى البحر، ولهذا فهى تتركه واقفا فوق الارصفة حتى تجفف شمس النهار أفكاره وأحلامه ومشاريعه وذكرياته ويصير صالحا بعد ذلك للاستعمال، وتحت قهر الأيام التى قضاها واقفا فوق الأرصفة، وهروبا من قسوة الابواب الموصدة والافكار المجففة والجدران الصماء التى لا تملك

اذانا تسمع بها تواريخ صبواته أو ذكريات عشقه للاشجار والطيور وجداول الماء، ولا تملك اعينا ترى بها مشاريعه التنويرية التى جاء يبشر بها العالم، يرمى هذا الرجل نفسه فى دائرة العادة والروتين الرمادية، يتعفر مثل الآخرين برمادها، ويضع رأسه بين الرؤوس التى جففتها الشمس يبحث عن فرصة للرزق الرمادى تتيحها له هذه المدينة. لقد حرره الرماد من اوهامه فصار يمشى فى الشارع لا يحمل ذاكرة ولا تاريخا ولا ينتمى لاحد الا لظله، ولا يؤمن بشيء الا باقنعته التى تعلم كيف يرتديها ليواجه بها قسوة الاضواء التى تبرق من العيون السحرية المثبتة ببوابات المدينة. لم يعد يهمه ان يعيد صياغة العالم، فقد صار همه الآن ان يعيد صياغة جسمه بحيث يتلاءم مع هذه الفتحة الصغيرة التى تتيحها الابواب المغلقة للراغبين فى العبور من خلالها إلى الرزق والعمل. يمشى مضغوطا بين السماء والارض، وبين قنطرة فى الشمال وقنطرة فى الجنوب، يسمع صرير الباب فيركض نحوه، يرى الانفراجة الصغيرة التى لا تسمح بدخوله الا اذا جاء زاحفا. ينبطح فوق الأرض ويزحف، ولكن الباب يفضى إلى باب آخر وانفراجه أخرى مهيأة

للزاحفين على بطونهم. تمرين يومى، ضرورى، لكى ينسى الانسان عقله ويتذكر بطنه، هذه شروط المدينة الكبيرة. لقد وعى هذه الشروط وواصل التدريب على هذا التمرين حتى أجاده، وصار بامكانه الان ان يركض على بطنه بدل ان يزحف. انه اسعد حظاً من اناس آخرين لا يستطيعون ولوج هذه الابواب الا اذا انسكبوا ماء فوق الأرض أو تحولوا إلى غبار وتسللوا مع الغبار.

يحمل له البريد رسالة من اهله مختومة باختام القرية التى جاء منها، ينظر إلى الرسالة باستغراب، لانه لم يعد يذكر اولئك الاهل أو تلك القرية.

تتحدث الرسالة عن جبل وشجرة وطائر وجدول ماء واشياء اخرى من بينها اسم امرأة كان يحبها، ولكنه نسى الجبال والاشجار والطيور وجداول الماء وهذه المرأة التى لا يذكر شيئا عنها، لم يعد يعنيه امر هذه الاشياء، فهو لا يذكر من اين جاء ولماذا جاء. استولى عليه سحر هذه المدينة فنسى الافكار والاحلام والمشاريع الكاذبة. اعادت المدينة صياغته صياغة جديدة، حتى صار جديرا بالانتماء اليها،

مولعا بالاقنعة الجميلة واضواء العيون السحرية ورياضة الركض الجميل على البطون كل صباح.

- ٥١ -

هل نحن الذين نختار المجالات التى نعمل بها، والمهن والحرف التى نحترفها، أم أن هذه المهن هى التى تختارنا؟ سؤال يخطر لى كلما رأيت اخا واخاه، كلاهما جاءا من بيئة واحدة وتربية واحدة، وكلاهما اكتفيا بالمراحل التعليمية الأولى، ولكنهما افترقا فى طبيعة العمل.

احدهما يشتغل بورشة لاصلاح السيارات والثانى يشتغل فى محل لبيع الزهور. واقول فى نفسى إن هناك مهنا تختار أصحابها، وأخرى يختارها أصحابها. وإذا نظرنا إلى الوراء قليلا فسوف نجد ان الانسان لم يكن فى العصور الماضية يختار مهنته وإنما يختارها له اسلافه الموتى. يرث المزارع شجرة، ويرث ابن الحداد كيراً وموقداً للنار، ويرث ابن تاجر الاقمشة دكانة وعلاقات مع رجال السوق، ويرث ابن الراعى قطعة من الأرض يعرف احراشها ووهادها وأوديتها وقطعة من السماء يعرف نجومها واقمارها، ويرث

ابن صائد السمك قارباً وشبكة صيد وعلاقة مع البحر وأمواجه. وهكذا اغلب المهن الأخرى التى يتحكم فيها عامل الارث والبيئة والمحيط. اتسعت بعد ذلك مجالات العمل باتساع رقعة البشر وجاء هذا الفائض من الأحفاد الذين لم تعد تستوعبهم دكانة جدهم الحداد أو أقارب جدهم السماك أو خيمة جدهم الراعى، فصاروا يتفننون فى اختراع مهن جديدة. ولكن لماذا ذهب ذلك الأخ إلى ورشة السيارات وذهب شقيقه إلى دكانة لبيع الورود، بكل ما بينهما من تباين فى اللون والرائحة. سأعتبر منذ البداية ان هناك فروقا فى الميول والاهتمامات والحساسية والمزاج أملت على كل منهما ان يختار طريقه الذى يختلف عن الآخر. سأتصور ان أحدهما عالم والآخر شاعر، لم تتح لهما فرص التعليم ان يصلا بمواهبهما إلى درجتها العليا، فاكتفى كل منهما بالسير وراء ميوله الفطرية التى لم تجد صقلا وتطويراً. اختار العالم الذى لم يصل إلى مرحلة فهم المعادلات الرياضية وأسرارها المعقدة التى تحتاج إلى المران والتدريب، مهنة تتفق مع ميوله فى التعامل مع هذه الآلات فكاً وتركيباً. واختار الشاعر الذى لم يستطع أن يصل إلى مرحلة الادراك لأسرار

اللغة بالقدر الذى يتيح له كتابة الشعر مهنة تتفق مع شاعرية مزاجه وهى التعامل مع هذه الزهور والورود، ومثل هؤلاء لا يختارون هذه المهن، ولكن هذه المهن هى التى تختارهم.

- ٥٢ -

قبل ان تنتشر فوق الأرض هذه العمائر التى جعلت من "الشقة" مسكنا لاغلب الناس فى بلادنا كما فى بلاد العالم الاخرى، كانت المساكن تتنوع بتنوع البيئات والمناخات ومستويات المعيشة. وباعتبار ان المجتمعات العربية مجتمعات بدوية ريفية زراعية بدأت عشية الاستقلال تحولها نحو المجتمع المدينى، فقد نشأ أغلب ابناء بلادنا ممن عاصروا هذا التحول فى مساكن متنوعة اختلفت احجامها واشكالها عن حجم هذه الشقة التى صارت سكنا موحدا لاغلب ابناء شعوبنا، وبجوار الذين عرفوا الشقة منذ نشأتهم، فان عددا كبيرا منا جاء من الخيمة، وعدداً أخر جاء من الاكواخ التى كانت تنتشر فى الارياف وعلى ضفاف المدن، وعددا أخر جاء من البيوت العربية التقليدية ذات الغرف التى تفتح فى صحن البيت المفتوح، وجاء البعض الآخر من بيوت

كانت تتجاور فيها العائلات كما فى بعض الاجزاء القديمة من المدن العربية عندما كانت ثلاث واربع عائلات أو اكثر تسكن فى البيت الواحد. وجاء بعضنا الآخر ممن هم اكثر يسرا ورخاء من دارات فسيحة واسعة، ولكن ما الذى تركه شكل البيت الذى شهد طفولتنا ومراحل تفتح وعينا وسنوات التكوين الاولى على سلوكنا وشخصيتنا، وما هو تأثيره العامل حتى الآن فى وعينا ولا وعينا، هذا هو ما يحاول "علم المكان" الاقتراب من دراسته، فى اطار العلائق الاجتماعية التى تدرس الانسان ومحيطه، بمثل ما فعلت علوم الأناسة وعلوم الاجتماع التى تفرع عنها هذا العلم حتى صار الان يستقل بذاته ويؤسس مدارسه الخاصة به. إلى أى مدى تركت هذه الخيمة المزروعة وسط فضاء من الارض الخلاء بصماتها على تفكيرنا وسلوكنا، أو هذا الكوخ الذى يتكئ على اكواخ اخرى ويناضل معها عصف الرياح وهدير السيل وضربات المطر، أو هذا البيت الذى يكتظ بساكنيه وضجيجه، أو البيت الآخر الذى تحيط به الحدائق والبساتين بهدوئه وسلامه، انه علم يدرس التفاعل بين الانسان والمكان والتأثير المتبادل بينهما، فنحن بمثل ما نختار اسلوبا نبنى به

مساكننا، فان لهذه المساكن كما يقول هذا العلم تأثير علينا، ولابد ان الزحام الذى صار مشكلة مدن العالم الكبيرة هو الذى اوجب ظهور هذا العلم. هذه المسافة الضرورية التى يحتاجها الانسان لكى يتحرك ويتنفس والتى صارت تختفى بعد ان صار الناس يتكدسون فى الاحياء الشعبية بالمدن الكبيرة هى التى جعلت علماء الغرب يجعلون من هذا الفرع الصغير علما جديدا يحاول دراسة المسكن وتأثيره على عناصر الادراك والتفكير، وبعد ان عرفنا مدارس علم النفس التى تحيل كل شيء فى سلوكنا إلى طفولتنا وظروف نشأتنا فى السنة الأولى لميلادنا، وعلوم اخرى تهتم بالوراثة وتحيل هذا السلوك إلى الجينات التى نحملها فى دمنا، وعلوم اجتماعية تحيل هذا السلوك إلى البيئة التى حولنا والظروف الاجتماعية والاقتصادية التى احاطت بنشأتنا، فقد جاء الان هذا العلم يعطى للمسكن ايضا الحق فى توجيه سلوكنا وتكوين شخصيتنا، ولا ادرى ما الذى سوف تبقيه هذه العلوم لارادتنا ومواردنا المادية والروحية وقدراتنا على الفعل والعمل والاختيار وصنع الحياة بحسب ما نراه نحن لا بما فرضته علينا المساكن التى ولدنا بها أو الجينات التى نحملها

أو الظروف الاجتماعية التى احاطت بنشأتنا أو المعاملة التى لاقيناها قبل فطامنا. ان هذه العلوم التى تضئ جوانب كثيرة من حياتنا، لا تستطيع دائما ان تحيط بكل اسرار هذا الكائن الذى اسمه الانسان، وهى لن تستطيع ان تقدم لنا مسطرة جاهزة تلائم مقاسه، لان مقاسه اكبر من كل هذه المساطر، وطاقات العمل والابداع لديه قادرة دائما على ان تقفز فوق عوامل القهر والكبت والاحباط وقسوة البيئة وظروف النشأة الاولى، لتصنع منه انسانا قادرا على مجابهة الحياة وفرض ارادته على الطبيعة، ومهما تعددت المساكن التى نشأنا بها فسوف لن يخيفنا هذا العلم الجديد أو يجعلنا ننسى انتماءنا المشترك لثقافة واحدة حددت منذ البداية اهدافنا المشتركة ومصيرنا المشترك.

كان الحى الذى اختلطت فيه البيوت بالبساتين حياً راقياً غنياً باشجاره وأزهاره وعبيره وطيوره، يمنح هذا الجزء من المدينة بهاء الاخضرار وجماله، ثم كثرت البيوت وتضاءل

عدد البساتين حتى تحولت هذه البساتين إلى مجرد حدائق صغيرة تحيط بالبيوت.

ونمر بهذه البيوت التى يسكنها أهل اليسر من ابناء مدينتنا ونتأسف لما لحق من ضرر بالأشجار والطيور ولكن ما تبقى منها مازال يقدم لنا شيئا من العزاء، فنستنشق عبير هذه الحدائق ونتأمل براعمها وأزهارها ونحمد ا انها لم تسحق سحقا كاملا فنحرم من هذا الجمال الذى يجعل الطريق اكثر يسرا وسهولة عندما نقطعه صحبة عبقها وعبيرها وخضرتها، ونشكر لأهل هذا الحى محافظتهم على التقاليد القديمة التى لا تحجب هذه الأشجار ولا تخفيها عن الفقراء من امثالنا، ولكن ما حدث بعد ذلك كان شيئا يدعو إلى الاسف والأسى، فقد تعالت حيطان الأسوار والسياجات حول هذه الحدائق حتى غطت الخضرة والاشجار وطردت الطيور والعبير وتحول الحى إلى كتلة من الاسمنت والحديد والحجارة وتحول عبور الطريق إلى مهمة ثقيلة بائسة.

يحدث هذا لأحياء سكنية كثيرة عرفناها فى مرحلة من المراحل تشبه المنتزهات ولكن التحولات الاجتماعية وزحف الارياف على المدن وتبدل الخريطة الديموغرافية للمدينة

العربية وغياب التقاليد القديمة لأهل تلك المدينة جلب معه أول ما جلب اسوار الحدائق العالية، وهى أسوار تبنى دائما بالحجارة والأسمنت بحيث لا تترك منفذا واحداً يتسلل منه البصر لأشجار الحديقة، فقد جاء هذا المواطن البدوى أو الريفى الذى عاشر الخلاء طويلا، مرعوبا من المدينة واهلها، ورأى الطرقات تمر امام بيته الذى اقتنا حديثا فى المدينة والحافلات تقف امام الباب "تصنع" زحاما من البشر الذين يقتحمون حرمة البيت، فكان أول ما فعله ان أزال الحاجز الخشبى القصير الذى لا يرتفع إلا أشبارا فوق الارض وبنى جداراً يرتفع حتى يحاذى قبة البيت، وفعل جاره مثله، حتى صار بناء الأسوار العالية حمى تغمر المدينة وكأن غزوا قريبا سوف يجتاح هذه المدينة، وتحولت البيوت إلى ما يشبه القلاع واختفى ما تبقى من اشجار داخل الأسوار، فما عاد بامكانك ان تراها كما كنت تراها فى ازمنة مضت، اصبحت المدينة كتلة من الحجارة الصماء تسفها الرياح وتحرقها الشمس، وصرت تدعو فى صلاتك ان يمنحك ا ثروة صغيرة لا لتبنى بها قلعة كقلاعهم ولكن لتؤجر بها طائرة صغيرة تذهب بها إلى عملك، فقد صارت

هذه هى الطريقة الوحيدة التى تستطيع ان ترى بها تلك الاشجار التى احببتها عندما منحتك صحبتها فى مشاويرك القديمة، طائرة تمر بها فوق اسطح هذه البيوت وتقتحم بنظراتك هذه الحدائق نكاية بأصحابها الذين اخفوها عنك ومنعوك من رؤيتها.

ولعل هذا الميل لبناء الأسوار الاسمنتية العالية ليس حكراً على أهلنا ممن نزحوا إلى المدينة من الأرياف والبوادى، فهو داء كان من الممكن ان يصيب العواصم العالمية الكبيرة التى اختلطت فيها الاعراق والاجناس، ولكن هذه العواصم الكبيرة حافظت على بهاء الاحياء وخضرتها بالقوانين الحازمة الرادعة التى تمنع مصادرة هذا البهاء، فانت فى بريطانيا مثلا تستطيع ان تفعل ما تشاء من تغيرات داخل بيتك ولكنك لا تستطيع ان تلمس واجهة البيت أو سور الحديقة إلا اذا اردت تجديدهما بالمواصفات نفسها التى كانا عليها. لأن هذه الواجهة وهذا السور لا يخصانك وحدك، انهما جزء من مظهر المدينة وجمالها وشخصيتها، وإذا أراد كل ساكن ان يعبث بهما كما يشاء ضاعت شخصية المدينة وملأ وجهها التشويه وغمرته الفوضى وانتهى كل انسجام

بين ابنيتها وشوارعها، وتحولت إلى رقع من الاشكال والالوان والتكوينات الغريبة. ان هذا التجانس البديع فيما نراه من شوارع واحياء بالعواصم الكبيرة لم يكن ليبقى دون أعين تحرسه وتحافظ عليه وتمنع أى تلاعب أو استهتار به، ولذلك فان ما نراه من فوضى وتشويه وغياب للأشجار والحدائق انما جاء من غياب هذه الحراسة التى يجب ان تقوم بها الدولة محافظة على شخصية المدينة فى بلادنا وانقاذا لها من هذا القبح والتشويه.

- ٥٤ -

يبدأ مع حلول فصل الصيف، موسم السفر والاجازات، وسأجد نفسى أواجه ذات الحيرة التى واجهتها خلال مضى عندما اردت قضاء اجازتى خارج البلاد، فقد قمت فى ذلك الوقت بتبديل المخصصات المالية المسموح بها للمسافرين من أجل السياحة، إلى عملة صعبة قيمتها ألف دولار. وأدركت وأنا انتهى من انجاز مهمة التحويل أن هذه الدولارات سوف تذهب مباشرة لانعاش الدورة الاقتصادية

لدول السوق الأوروبية المشتركة التى كنت عازما على السفر إلى بعض بلدانها.

أصابنى هذا الادراك المفاجئ بشيء من تأنيب الضمير، إذ أن أغلب هذه الدول تحمل اثام وذنوب تأييدها للطرف المعادى لنا فى صراعنا لاسترداد أرضنا وحقوقنا المغتصبة، وكدت اعدل عن السفر نكاية ببلدان هذه السوق ورغبة فى حرمانها من الاستفادة بمخصصاتى. ولكن الشوق للقاء أصدقاء يعيشون هناك أرغمنى على القيام بالاجازة وتقديم هذا الفضل لبلدان لم تثبت استحقاقها له، ولأن برنامج الرحلة كان باتجاه لندن مروراً بروما وباريس، فقد جلست وفى يدى الدولارات الألف أحاول تقسيمها بين هذه العواصم الثلاث، ورغبة فى إقامة العدل وتحقيق مبدأ الانصاف والمساواة، فقد قررت أن أقوم بتقسيم المبلغ فيما بينها بالتساوى بحيث اصرف الثلث فى كل مدينة، ثم تذكرت مواقف هذه الدول المتباينة من قضايانا، فهى وإن اشتركت فى سياسة عامة مجحفة، إلا أن هناك تفاوتا فى درجة هذا الاجحاف من دولة إلى أخرى، ووجدت أن افضل وسيلة لارضاء ضميرى هى أن اعامل كل دولة بحسب مواقفها

السياسية، وهكذا فقد قررت أن أمنح أقل نسبة من هذه المخصصات لبريطانيا عقابا لها على تواطئها المخجل مع الادارة الأمريكية فى كل مواقفها المعادية للعرب، وأن أكافئ إيطاليا بالجزء الأكبر من مخصصاتى إكراما للسيد أندريوتى وتصريحاته الايجابية بشأن منظمة التحرير، وان أضع فرنسا فى مرتبة بين الاثنتين نتيجة لموقف السيد ميتران المتذبذب بين العرب والاسرائيليين.

وإذا كنت قد قمت بدور فى إنعاش اقتصاديات السوق الأوروبية المشتركة خلال موسم الاجازات الماضى، فأننى هذا العام يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أعاود القيام بذات الدور، لأن الحكمة تقتضى أن أذهب باجازاتى ومخصصاتى لهذا الموسم إلى دول السوق الاسيوية تحقيقا لمبدأ العدالة بين الاسواق والقارات وحفاظا على التوازنات الدولية التى لا أرضى لنفسى بان أكون سببا فى أرباكها واضطرابها.

- ٥٥ -

بمثل ما يحتل المقهى الصغير فى حى هادئ ركنا حميما من ذلك الحى يصبح فيه مركز النشاط والحركة ولقاء

الاصدقاء، فأن المقهى يحتل فى ذاكرتى مكانا حميما وعامرا بالاصدقاء هو الآخر. لقد ارتبط المقهى فى ذهنى بعلاقات وصداقات بدأت وتواصلت وتنامت على مقاهى الأرصفة وأرصفة المقاهى.

حتى اولئك الزملاء الذين جمعتنى بهم ظروف العمل والوظيفة، لم تكن زمالتى بهم تتحول إلى صداقة حميمة الا اذا اصبح الواحد منهم طرفا فى هذه اللقاءات التى نعقدها كل مساء حول فناجين القهوة ومنافض السجاير ووسط دوشة الشارع وهدير السيارات. لقد رحل بعض هؤلاء الاصدقاء عن عالمنا، وتباعدت السبل بينى وبين بعضهم الآخر، ولكنهم يقيمون دائما فى هذا المقهى الذى يحتل جزءا حميما من الذاكرة. لقد لعب المقهى دورا كبيرا فى الحياة الفكرية والثقافية فى مجتمعات العالم شرقا وغربا وبذلك فانه لا يمكن تأريخ الحركة الادبية دون الحديث عن المقاهى بما فى ذلك عالمنا العربى منذ تلك الحلقات التى كانت تنعقد حول جمال الدين الافغانى إلى حلقات هذه الايام التى تنعقد حول نجيب محفوظ مرورا برموز الفكر والفن والثقافة الذين احالوا بعض المقاهى إلى منتديات فكرية وثقافية، وإذا كان المقهى

فى مجتمعات العالم الصناعى يمثل ركيزة اساسية من ركائز الحياة الاجتماعية فانه فى بيئة محافظة مثل بيئتنا العربية يصبح ملاذا وحيدا لملاقاة الاصدقاء عندما يترك الرجال البيوت للنساء يتزاورن ويعقدن جلسات الشاى والقهوة، ويتخذون هم من المقاهى امكنة لاستقبال الاصدقاء. دون ان ننسى ان الطقس فى بلادنا يتيح للمقاهى ما لا يتيحه لمثلها فى بلاد الشتاء الدائم، فهى تستطيع كلما جاء المساء ان تنتشر بمناضدها وكراسيها لتحتل الارصفة القريبة والبعيدة وتملأ الشارع الذى اقفلت متاجره، بنبض الحياة والحركة من جديد.

ولكن داء صار يصيب المقاهى، ابدل طبيعتها وجعل الناس من امثالنا لا يجدون مكانا بين زبائنها الجدد. بدأ الامر بتغيير المالكين لهذه المقاهى فبعد أن كان اصحابها يتوارثونها عن ابائهم واجدادهم ويحفظون لها تقاليدها ويعتزون بزبائنها الذين يتحولون إلى اصدقاء، ويفخرون بالنابغين الذين مروا بتاريخ المقهى، جاء ملاك جدد لا يحفظون التقاليد ولا يفرحون بشيء سوى الكسب السريع، ثم توالت بعد ذلك المخططات الجديدة التى تسعى لاعادة تخطيط

المدن والشوارع بما يتمشى مع ازدياد السيارات ويواكب عهد النفط والرخاء، ولكن هذا الرخاء كان نكبة على المقاهى، وما اعظم صدمتنا عندما نكتشف ذات لحظة ان البلدية قررت فجأة ان تصنع طريقا جديدا محاذيا للبحر، خبر مفرح تقام من اجله الاحتفالات فقد تم رصد الميزانيات الكبيرة التى تأذن بتحقيق هذا الحلم، ولكن هذه الافراح والاحتفالات تعنى فى حقيقة الأمر ان كل تلك المقاهى التى كان يضج بها الشاطئ وتمنح الحياة الليلية للمدينة رونقها وبهاءها سوف تختفى بأضوائها وضجيج روادها ليحل بدلا منه ضجيج الرافعات والشاحنات وآلات الحفر والبناء، ويمضى العام وراء العام فلا البلدية انجزت الطريق ولا تركت المقاهى لعباد ا ، ونأسى ونتأسف ونبحث عن مقاه أخرى ولكن المقاهى هذه الايام صارت جميعها تفوح برائحة الشواء، تحول معظمها إلى مطاعم ومحلات لبيع الاكلات السريعة وان ابقت على جزء لبيع القهوة والشاى لا حبا فى زبائن القهوة ولكن خوفا من القانون الذى لم يمنحها ترخيصا الا لهذا الغرض، ولكن الافضلية المطلقة تبقى لزبائن الطعام الذين يدفعون نقودا اكثر ويمرون عليها مرور الكرام، أما

امثالنا ممن لا يعرفون المرور الكريم ولا يشربون سوى القهوة ويحتلون المقاعد بالساعات فقد صاروا ضيوفا ثقلاء لا احد يريدهم أو يرحب بهم، وعبثا تحاول ان تقنع اصحاب هذه المقاهى ممن تربطك علاقة بهم ان المقاهى التى تخصص ركنا للادباء وتكرم وفادتهم سوف تحتل مكانة رفيعة فى التاريخ الثقافى وقد يأتى من يؤلف كتابا عنها وعن اصحابها كما حدث لكثير من المقاهى فى الشرق والغرب، ولكن صاحب المقهى لا يستطيع ان يصدق ان هؤلاء الادباء الذين يستدينون احيانا ثمن القهوة يمكن ان يأتى السعد فى ركابهم فهو لم ير شيئا يأتى فى ركابهم الا الفقر والبؤس والمخبرين، ولذلك فهو يدير ظهره لهم وينظر بامتنان إلى زبائن الطعام السريع فهم سبب سعده ومصدر رزقه الوفير الذى يأتيه دون ازعاج أو مشاكل.

ونظل ننتقل بجلساتنا من مقهى إلى مقهى، ننزوى فى ركن مملوء بالدخان ورائحة البصل المحروق ونمارس عشقنا المريض للمقاهى التى تعاملنا بقسوة واعراض وجفاء، ومع ذلك نحفظ لها الود القديم ونثور احيانا على هذا الوضع

المهين فنقاطعها ونعتصم اياما فى بيوتنا احتجاجا عليها، ثم لا نلبث أن نعود إليها لأنها صارت إدماننا لا شفاء منه.

- ٥٦ -

انتهى الصيف، بمثل ما انتهى الخريف، وجاء فصل الشتاء بنهاراته القصيرة ولياليه العاصفة الممطرة الباردة، فأهلا بمواقد النار وفواتير الكهرباء والتدفئة المركزية. جاء الشتاء ولكن تقليدا صيفيا يبقى معنا، يلازم سلوكنا اليومى فى مشرقنا العتيد السعيد، ويرافقنا حتى فى أكثر ايام الشتاء شراسة ورعدا وبردا، هو اغفاءة القيلولة.

وبرغم أن هذه النهارات الشتائية الصغيرة لا تعرف قيلولة، ولا يستصحبها قيظ يوجب الهروب إلى طراوة البيت وسقوفه الواطئة وأحلام النوم وغيبوبته الجميلة، الا أن هذه الاغفاءة صارت عادة لدى الكثيرين منا، تمارس سلطانها علينا وتجعلنا نعيش وسط الشتاء بعقلية الصيف، ولعل السبب فى ذلك هو اننا شعوب تنتمى إلى الصيف اكثر مما تنتمى إلى الشتاء، فالصيف هو اطول الفصول لدينا واكثرها تسلطا على الفصول الأخرى، يأخذ من أشهرها القليلة اشهرا

يضيفها إلى نفسه ويلون مناخاتها بمناخه ويبعث قيظه وجفافه ورياحه الساخنة إلى خريفها وربيعها، ويسطو احيانا على نهارات الشتاء برغم المسافات التى تفصلها عنه، يرسل اليها جنوده المظليين الذين يهبطون خاف خطوط الدفاع الامامية محملين بعبوءات من القيظ والقحط والجفاف، فهو فصل عدوانى، توسعى، يؤمن بمنطق القوة، وسياسة الحدود المفتوحة والأرض المحروقة واجبار الفصول الاخرى على الاعتراف بالأمر الواقع والتسليم بقدرته على الهيمنة والتسلط والنفوذ. وما الشتاء أمامه إلا فصل ضعيف، هزيل، لا حول له ولا قوة، برغم ضجيجه وعنفه وكلامه المرعد الصاخب، إنه فصل طارئ فى حياتنا لم ينشئ لنفسه تقاليد، ولم يصنع لنا من العادات وأساليب النوم واليقظة ما يجعلنا نحترم مجيئه أو ذهابه، فهو يأتى سريعا ويمضى سريعا، دون أن يترك فى نفوسنا أثرا كبيرا، وتبقى شمس الصيف حتى وإن اختفت من سمائنا مزروعة فى عروقنا ودمائنا ترغمنا على أن نقدم ولاءنا للصيف مهما أرعد الشتاء وأرسل بروقه المنذرة أو ضرب بالعواصف بيوتنا، أو أهاج الأمواج يهدد بها شواطئنا أو اغرق بسيوله اشجارنا أو غطى بالسحب السوداء جبالنا.

نرتدى له المعاطف ونحمل المظلات ونفرح بامطاره التى تغذى زرعنا الذى لا نزرعه إلا أيام الصيف ولا نحتفل بحصاده إلا بالصيف، ولا نعترف بغير الصيف سيدا على عواطفنا ومشاعرنا، وبرغم ما يقولونه من أن برد الشتاء يدفع إلى العمل والحركة والنشاط بحثا عن الدفء واستجلابا للطاقة الحرارية التى يحتاجها الجسم، فنحن نواصل مع ذلك خمولنا الصيفى الجميل لأن قيظه غذانا بما يكفى من طاقة حرارية نختزنها فى أجسامنا ولا نحتاج معها إلى طاقة أخرى نستحضرها عن طريق الشقاء والمعاناة والكدح. نطرد الشتاء من قلوبنا ولا نذكر سوى الصيف الذى نخترع له قيلولة وهمية بانتظار قيلولته الحقيقية، ونأخذ إغفاءة منتصف النهار كما كنا نفعل فى وجوده غير عابئين اذا ما كان هذا النهار صغيرا وقصيرا لا يحتمل النوم والاغفاء وانما يدعو إلى الاسراع فى إنجاز الأعمال قبل أن يدركنا الظلام ويغمرنا بأمواجه السوداء.

إننى أندهش كيف استطاعت بعض بلاد الشرق ادخال نظام العمل الذى يمتد فترتين فى اليوم لأن بلادنا أخرى حاولت ادخال هذا النظام ولكن المحاولة لم تدم الا بضعة ايام

فقد كان الموظفون ينامون فوق مكاتبهم، يطردون المراجعين ويمتنعون عن العمل، وأرغموا بذلك الحكومة على العودة إلى نظام الفترة الواحدة التى تتيح لهم نوما هانئا عند القيلولة.

وليس معنى ذلك اننى اعترض على اغفاءة الظهيرة أو اعتبرها دليل قصور فى ادراك معنى العمل والحياة، اننى بعكس ذلك تماما، ادرك ادراكا واضحا الحكمة من هذا التقليد العريق واضيفه إلى فنون الحياة كما يفهمها الشرقيون، واذا كان الناس فى بلاد العالم الاخرى يقسمون اليوم إلى قسمين احدهما للنوم وثانيهما لليقظة، فاننا افلحنا فى ان نقسم يومنا إلى اربعة اقسام، فننام مرتين ونستيقظ مرتين ونعيش يومنا الواحد بعد ان حولناه إلى يومين اثنين، نرتاد عالم الصباح بنفوس جديدة اراحها النوم ثم نغفو اغفاءة صغيرة عند الظهيرة نمسح بها تعب الصباح لنرتاد عالم المساء وكأننا نستقبل يوما جديدا بكل ما يتيحه هذا النوم من قدرة على استعادة الحيوية والنشاط.

قد يضيع أثناء ذلك وقت يكرسه الآخرون لإنجاز الأعمال، ولكن من قال ان ساعة النوم هذه يمكن ان تجنى على العمل اذا اردنا ان نواصله بعد استراحة منتصف

النهار، ثم من قال ايضا ان العمل هو هدف الانسان الوحيد فى الحياة لكى يمضى وراءه مضحيا بكل تقاليد الراحة والترفيه ولحظات المتعة والهناء، فالعمل فى نهاية المطاف ليس الا وسيلة تضمن للانسان حياة اكثر هناء وراحة وترفيها.

واذا كان الهجوع لحظات قصيرة بعد الغذاء سيثير حفيظة أناس آخرين لا يحبون نوم النهار ويعتبرونه علامة هروب من ميادين العمل والانتاج، فلن نعبأ بكلامهم ولا نرى فيه الا غيرة وحسدا وعجزا عن فهم الحياة، وليهنئوا بصحوهم ويقظتهم فلا نامت اعينهم ولا أعين كل الحاسدين والعاجزين والجبناء.

تتدافع موجات الهواء الساخن تلاحقك وتذكرك بالوعد الذى قطعته على نفسك، وهو أن تأخذ اجازة من عملك وهاتفك ومذياعك وصحيفتك، وتقتطع اياما تقضيها بعيدا عن روتينك اليومى، ودوائرك المألوفة المكرورة، بحثا عن بحر ورمل وهواء اكثر طراوة، ولكن الزمن العربى يتدخل فى

اللحظات الاخيرة ليضع لك برنامجا مختلفا، ويجعلك تلتصق مرة اخرى بالهاتف والمذياع والصحيفة، تنسى إجازة الصيف وأحلام الاسترخاء على شاطئ البحر، وتغرق فى لجة الاحداث التى تتدافع بهوائها الساخن من حولك.

تتذكر وأنت تسبح فى العرق، ان هناك بحرا قريبا من مكان سكناك، فلعلك تسرق بضع ساعات تقضيها هناك، تخلع نعليك وتمشى حافيا فوق الشاطئ تغوص اقدامك فى الرمال، تضرب رأسك الشمس حتى يصيبك الدوار، ويزورك أثناء هذه اللحظات، جحا العربى، يرتدى اقنعته ويأتى مسافرا من زمانه إلى زمانك ويقدم لك عرضا يتفق مع مشاهد الحياة التى تنقلها لك الصحيفة والمذياع.

ترى جحا العربى يضع نعليه تحت ابطه ويصعد نخله تغرس رأسها فى الافق، تسأله حائرا لماذا يأخذ معه نعليه إلى قمة النخلة، فيجيبك ساخطا، متذمرا من تدخلك فى شؤونه الخاصة، بأن رأس النخلة ليس الا محطة يواصل منها السفر إلى مكان آخر.

تفزع من هذه الرؤيا، وتترك الرمل والبحر والشمس وتعود للاحتماء بسقف البيت الذى تسكنه، ولكن المشاهد

العبثية التى تتسال اليك عبر موجات الضوء والهواء، تجعلك تعود مرة أخرى بحثا عن جحا الأساطير، فلعل لديه عرضا أكثر معقولية مما تراه على مسرح الاحداث العربية..

نجد جحا هذه المرة يأخذ منشارا ويجلس على غصن فى أعلى الشجرة، وبدلا من ان يقتطع بالمنشار غصنا آخر يختار الغصن الذى يجلس فوقه ويبدأ فى قطعه من جزئه النابت فى الشجرة.

تحاول تحذيره قائلا له بأنه سوف يهلك نفسه بمثل هذا العمل، ولكنه يدير عنك وجهه غاضبا ويواصل قطع الغصن الذى يجلس فوقه، تتركه قبل أن تشاهد مأساة سقوطه فوق الارض، وتذهب هذه المرة إلى البحر، تلجأ إلى امواجه هاربا من سعار الشمس وحماقات الزمن العربى وعبث الرجال الذين يرتدون اقنعة جحا ولا يستحضرون من سيرته إلا جحا الرعونة والحماقة والأفكار الخرقاء، ولكن البحر الذى صار يمثل فى الذاكرة العربية عالما اسطوريا مخيفا يمتلئ بالاشباح والغيلان واسماك الرعب، يتحول فجأة إلى قدر من الماء الذى يغلى، فتقفز إلى الشاطئ باحثا عن النجاة، ويأتى جحا ليقدم أمامك مشهدا آخر، فها أنت تراه يضرب

حمارا مربوطا عقابا له على ما فعله حمار آخر يأكل الزرع، تسأله حائرا أن يذهب لإنقاذ زرعه من الحمار الطليق بدل أن يهدر الوقت والجهد يعاقب حمارا لم يفعل شيئاً، لكنه يقول لك بأنه لا بد ان ينتقم من الحمار المربوط لأنه لو تحرر من رباطه لفعل بالزرع أكثر مما فعله الحمار الآخر.

تتأسف لهذا المنطق الذى يستخدمه جحا الفكاهة والافكار الخرقاء. تتركه مع زرعه وحميره وتذهب باحثا عن مشهد آخر، وسرعان ما تدرك انك مجرد نقطة تتجول فى معرض عامر بالصور العبثية، ولكى لا تكون نشازا، تمد انت ايضا يدك إلى قبعة القش التى تحتمى بها من الشمس، وتبدأ على الفور فى التهامها قشة قشة، وما ان يراك جحا تفعل ذلك حتى يقبل نحوك ضاحكا، راضيا، قائلا:

- شهية طيبة يا أخي !!

جزء مهم من متعة السفر والسياحة هو ان نترك انفسنا لكى نتوه فى شوارع المدن التى نزورها، نضيع فى زحامها، ونفقد الاتجاه الذى يقود إلى فندقنا، وندخل مناطق لم نكن قد

حددنا على الخريطة مواقعها، وشوارع خلفية لا نعرف اولها من آخرها.

ونركب حافلات لا ندرى شيئا عن المحطات الاخيرة التى ستقودنا اليها، ونلتقى بنماذج وألوان غير تلك التى نراها فى الميادين الرئيسية، ونقترب من ايقاع الحياة ونبضها فى تلك المناطق البعيدة عن الواجهات المضيئة التى تتشابه من مدينة إلى اخرى، وبذلك يتحقق شرط مهم من شروط السياحة التى لا يكتفى الانسان خلالها بالفرجة على المآثر السياحية وانما ينفذ إلى اعماق المدينة التى يزورها ويحاول الالتقاء بشيء من روحها ونكهتها ويستشعر أثناء ذلك طعم المغامرة والاكتشاف والتقاط خبرة جديدة لم يكن يعرفها، ولكن هذه الضياع والتوهان مشروط ببعض الشروط التى لابد ان يضعها المرء فى الاعتبار قبل ان يترك اقدامه تمشى على سجيتها، فأنت لا تستطيع ان تمارس ترفا كهذا اذا لم تكن تحمل فى جيبك أو تحفظ عن ظهر قلب، اسم وعنوان الفندق الذى وضعت به حقائبك عندما جاءت بك سيارة الاجرة اليه، لان هذا الضياع لن يكون عندئذ متعة ومغامرة وانما يتحول إلى كارثة ولجوء إلى مراكز الشرطة وقضاء

الليل على الارصفة والبحث عمن يتصدق عليك بتذكرة العودة.

وهذا المثل ينطبق على العديد من اوجه الحياة، فما اكثر ما نذهب وراء رحلة البحث والكشف والمغامرة بعد ان نكون قد نسينا قواعدنا، واضعنا منطلقاتنا، وصار الضياع المؤقت الذى اردناه متعة وتسلية، ضياعا حقيقيا.

وكثيرا ما صادفنا ونحن نزور المدن البعيدة عن بلادنا، هؤلاء الناس من اهلنا الذين ذهبوا إلى هذه البلاد لقضاء شهر من السياحة يجربون خلاله حظهم فى طرق ابواب الرزق ويعودون اذا لم يجدوا رزقا، فلم يجدوا رزقا ولم يعودوا، هكذا تبدأ الكارثة، تبدأ باعتبارها مغامرة صغيرة اذا لم تجلب لهم نفعا، فلن تجلب لهم ضررا، ولكن شهر السياحة يتحول إلى عمر يضيع فى التشرد والصعلكة واحيانا يقودهم الضياع إلى ابتزاز العصابات فتنتهى بهم المغامرة إلى الاجرام والسجون، وما اكثر الذين جاءوا إلى هذه البلدان بهدف الدراسة، ولأنهم ينسون وهم يحاولون الاستمتاع بالتحرر الاجتماعى الذى تتيحه هذه المجتمعات الجديدة، أهدافهم الاساسية، ينتهى بهم الامر هم ايضا إلى الضياع

وتدمير مستقبلهم والقضاء على فرص الانتفاع والفائدة التى كانوا سيعودون بها إلى اوطانهم.

امثلة كثيرة ونماذج كثيرة، نلتقى بها فنتمنى الا نلتقى بها مرة اخرى، لأن اللقاء ليس فقط مبعث كدر وحسرة، ولكنه كثيرا ما يكون بمبعث أذى يلحق بنا، لأن هؤلاء العرب الضائعين غالبا ما يتشطرون على أبناء قومهم فى التحايل والابتزاز والخديعة.

وهناك ضياع آخر لا يقل عن هذا الضياع فداحة وقسوة، وهو الضياع الفكرى والمعنوى، اذ كثيرا ما تبهرنا هذه الاجواء التى انتقلنا اليها، وهذه البلدان التى حققت نهوضها وتقدمها، فلا نرى للحياة معنى الا اذا استعرنا اسلوب اهلها وطريقتهم فى السلوك والمعاملة وممارسة الحياة، ويتحول هذا الانبهار إلى استلاب وتبعية، نخسر ارواحنا ونخسر شخصيتنا، ونتحول إلى توابع واصفار لا تساوى شيئا، لاننا نسينا منطلقاتنا وفقدنا عنواننا، وعندما اضعنا حقيبتنا فى الفندق اضعنا ايضا بطاقة هويتنا، فصرنا نمشى فى الشارع بلا هوية ولا عنوان، ولذلك لا تنس وانت

تبتعد عن الفندق الذى اقمت به ان تتحسس جيبك لتتأكد من انك تحمل عنوانا تعود إليه.

- ٥٩ -

تكتشف فى المقهى المليء بالجالسين طاولة شاغرة، يفرحك هذا الاكتشاف، وتذهب فى خطى مسرعة باتجاه الطاولة كى لا يسبقك اليها ضيف اخر، فطقس هذا الصباح كان جميلا وشمسه تشرق فى بهاء ووداعة، ولاشك ان هذا المقهى الذى نشر مقاعده فوق الرصيف هو افضل مكان لتصفح هذا الكم الهائل من الصحف والمجلات الذى تحمله تحت ابطك. لقد طفت فى المقهى مرات عديدة قبل هذه المرة بحثا عن طاولة تجلس اليها من دون جدوى. قد تجد مقعدا شاغرا ولكن من حوله بشر يضحكون ويثرثرون وينفثون دخانهم فى الهواء وانت ترفض ان تقتحم عليهم مجلسهم أو تكون ضيفا ثقيلا على موائدهم. فتنتظر حتى تجد طاولة شاغرة تستفرد بها وتستمتع بالجلوس اليها بعيدا عن مضايقات الآخرين، وما ان تجدها حتى تعدو اليها وتبسط نفوذك فوقها. تجلس وتنشر الصحيفة امام وجهك وما ان

تأتى القهوة حتى تشعل من اجلها سيجارة وتنفث دخانها فى بهجة واسترخاء، تمد ساقيك فوق الرصيف وتتكئ بمرفقك على الطاولة وقد جاءت الشمس تتسلق بحنو على جسمك، تتطلع إلى الآخرين بحب ومودة وقد فارقك ذلك القلق الذى ملأ صدرك وانت تبحث عن مكان مثل هذا المكان، وتقلب الصفحات حتى تصل إلى الصفحة التى بها مقالا اعجبك، فهو يتحدث عن الشاعر ادونيس الذى يثير الجدل ويحوط نفسه بالمريدين والمحبين الذين يملئون الصحف بمقالات عنه ومقابلات معه حتى صرت انت ايضا ممن يتتبعون اخباره ويقرءون بشغف المقالات التى تكتب عنه علها تمنحك بعض المفاتيح لفهم اشعاره، وما إن تبدأ بقراءة المقالة واكتشاف اول المفاتيح التى سوف تعينك فى حل مشكلة ارقتك طويلا عندما قرأت لادونيس شعراً يخاطب فيه حبيبته بعبارة تقول، "ادخل الان حوضك" ما ان تبدأ انت ايضا فى دخول حوض الناقد حتى تكتشف ان الطاولة التى اقمت فوقها ولايتك ورفعت عليها رايتك واعتبرتها إلى حين الانتهاء من قراءة هذه الصحف ارضك وسماك، تكتشف ان شخصا قد جاء، ونشر اعضاءه فوق الكرسى على الجانب الآخر منها واتكأ

بمرفقه على جزء من تلك الطاولة التى تخصك انت وحدك، واكثر من ذلك وضع فوقها الولاعة وعلبة السجائر والنظارة الشمسية، هكذا جاء يباغتك ويضع امتعته فوق ارضك غير عابئ بالتخوم التى اقمتها والراية التى رفعتها، تبخرت على الفور تلك الطمأنينة التى كنت تحس بها وضاع الزهو الذى رافق حصولك على هذه الطاولة، وتلتفت شمالا ويمينا لعل احد الناس يقوم صارخا يستنكر هذا الاعتداء الفاضح على ارضك ومجالك، ولكن احدا لا يتحرك فاعتبرتهم هم ايضا اعداءك وسحبت ما كنت تمنحه لهم من حب ومودة وصرت ترميهم بنظرات عدائية وكأنهم شركاء فى هذه المؤامرة. يجب ان تطرد هذا المتطفل الدعى الذى جاء ينتهك حرمة ارضك وسمائك، وتفهمه بلهجة حازمة ان يلتزم حدوده ويحترم حدود الآخرين، ثم لا تلبث ان تتذكر ان القوانين التى تحكم العلاقات داخل المحلات العامة تبيح مثل هذه الاعتداءات، فتكتم غيظك. ها هو الان ينفث سجائره قريبا من وجهك، ثم ها هو يمد يده إلى المنفضة التى وضعتها بجوارك ليجعلها فى مسافة متوسطة بينه وبينك، ويتصرف كأنه ليس متطفلا دخيلا وانما شريك اصيل لك. وها أنت تجد

نفسك تضم الصحف والمجلات التى نشرتها فوق الطاولة لتضعها فوق حجرك من اجل ان تفسح مكانا لقهوته. تبخر احساسك بجمال الكون وروعة الطقس والشاعر ادونيس الذى ظننت بأنك قد اقتربت من عوالمه وصرت قادرا على فهم اسراره، عاد من جديد شاعرا مغلقا غامضا مليئاً بالتعقيد، والناقد الذى كتب مقالته لم يعد الا ذلك الحوارى الذى اراد ان يقول كلاما اكثر غموضا يفسر به غموض الشاعر، وحوض الحبيبة عاد مرة اخرى لغزا يستعصى على الفهم، وتكتشف أن شهيتك لقراءة بقية الصحف والمجلات قد نضبت وانك نادم على هذه النقود التى أنفقتها فى شراء صحف تكرر نفسها وتعيد ذات الكلام فى صياغات مختلفة، وانك تهدر وقتك ونقودك فى اشياء لا جدوى منها، والشمس التى كانت وديعة طيبة تلامس وجهك برفق وحنان، فقدت الان وداعتها. وترفع الصحيفة حتى تغطى وجهك وتمنع بها اشعة الشمس من ان تصل إلى عينيك. لم تعد تطيق قراءة المقالات فتهرب إلى باب حظك اليوم وتكتشف ان ا قد ابتلاك هذا الصباح بكل الخصال الذميمة وان قارئ النجوم قد ادرك انك انسان ضيق الصدر تثور لاتفه الاسباب، وتتفنن فى صناعة الاعداء

وتمتلئ بمشاعر الاحباط والسوداوية. تطوى الصحيفة فى ضجر وتجد ان افضل ما تفعله الان هو ان تعترف بهزيمتك وتباشر على الفور انسحابك ولكنك ترفض الاستجابة لهذه الخواطر الانهزامية، لقد استيقظت فى ذهنك الآن كل أغانى فهد بلان عن الليل والويل والسيوف والدفوف، وغيرها من اغانى الحرب والصدام ومنازلة الاعداء التى تغذى بها وجدانك وانت تستمع إلى الاذاعات العربية، واذا كانت هذه الاغانى قد فشلت فى تحريك المشاعر وتعبئة الجماهير من اجل معارك اخرى، فلا اقل من ان تأتى لعونك وانت تخوض مواجهة فرضت عليك فرضا، لقد بدأت اغانى الحرب تفعل الان فعلها وها أنت تعيد طرح الصحف فوق الطاولة بطريقة عنيفة غاضبة، ها أنت تشعل سيجارة وتنفث دخانها مباشرة فى وجهه، ثم ها أنت تمد يدك من دون استئذان وتسحب المنفضة قريبا منك، وتضع مرفقك متكأ على الطاولة وتحتل مساحة كبيرة منها، لقد اضاع الرجل متعتك وبدد صفاء ذهنك فلا اقل من ان تستمتع قليلا بايذائه واستفزازه، ولكن الرجل ظل هادئا غير عابئ باغانى الحرب التى تضرب دفوفها فى رأسك. يواصل شرب قهوته ويتمدد

فوق كرسيه وكأنه هو صاحب هذا الموقع وليس انت، واكثر من ذلك ها هو الآن يمد عنقه ويهتف لصاحب له يعبر الطريق ويدعوه إلى الجلوس على مائدته، يستقبله كأنه يستقبل ضيفا فى بيته ثم يسحب له كرسيا ويضعه تماما امام قدميك حتى صار عليك ان تنكمش فى جلستك وان تثنى ساقيك تحت المقعد كمن قيدوه بالحبال، ومع ذلك فأنت ترفض أن تخذل أغانى فهد بلان وترضى بالاستسلام. ها هو الرجل يثرثر مع صاحبة بلغة غريبة تشبه نقيق الضفادع تملأك ضجرا وسأما ورغبة فى الانفجار، ولكنك لا تستطيع ان تنفجر، حتى الصحيفة لم يعد هناك مجال لان تنشرها امام وجهك. تخليت عن القراءة واكتفيت بالنظر إلى الشارع على الرغم من أن وجه الضيف الذى جاء حديثا يسد عليك كل منافذ الرؤية. إنك محاصر مخنوق فى جلستك، ونقيق الضفادع يخترق اذنيك مثل المسامير، وتلتفت حولك لعل طاولة اخرى قد صارت شاغرة الان يمكنك الانتقال اليها، فهذا اشرف قليلا من الانسحاب الكامل من هذا المقهى، ولكن المقهى لا يستطيع ان يمنحك هذا الشرف، واعلان الهزيمة امر صعب على قلب عربى مثلك، وها هو صاحب ثالث

يأتى وكرسى اخر يتم تدبيره ومساحة اضافية يجب ان تفسح له، وبحركة تلقائية وجدت نفسك تسحب كرسيك حتى تلتصق بالحائط وسيمفونية الضفادع تبلغ مرحلة الكروشيندو، والحصار من حولك صارا كاملا. ست أقدام تحاصر قدميك وست اذرع تحمل ست اياد تحمل بدورها ثلاثين اصبعا تتحرك امام وجهك، ويختفى فنجان قهوتك ليفسح المجال لفناجين الآخرين، وصار عليك أن تأخذ الصحف وتعيدها إلى حجرك، والركن الصغير من الطاولة الذى اتكأت عليه صار عليك أن تتنازل عنه، لقد بسطوا الآن نفوذهم كاملا فوق الطاولة، وتأكيدا لهذا النفوذ زحزحوها قليلا حتى ابتعدت عنك خالقة هوة عميقة كبيرة بينك وبينها وصار وضعك الآن وضع رجل تطفل على هذه الطاولة، لم يبق إلا حل واحد اخير يحفظ لك ماء وجهك وينجيك من هذا الكابوس وهو ان تقف الان وتسألهم ان يفسحوا لك الطريق وما ان تخطو خطوتك الاولى حتى تدفع الطاولة بطريقة عليك أن تجعلها عفوية وتلقائية دفعة تكفى لاسقاط فناجين القهوة وانسكابها فوق ملابسهم، يأتيك هذا الخاطر مثل الالهام فتباشر تنفيذه على الفور، تضع الصحف تحت ابطك وتنتصب واقفا تسألهم

بابتسامة زائفة الاذن بالمرور وما ان تتحرك المقاعد لتفسح لك الطريق حتى تجد ان انسانا جبانا يعيش فى ملابسك يرفض فى اللحظة الحاسمة ان يدفع الطاولة، لقد ضاع انتقامك وظلت مشاعر الخيبة والاحباط تملأ صدرك، تمضى هاربا ولكن عامل المقهى الذى ظنك صعلوكا يشرب القهوة ويهرب قبل دفع الحساب، جاء يجرى وراءك، ومليئا بالخجل والارتباك تدفع له النقود وقد امتدت العيون التى تنظر باندهاش إلى هذا اللص الذى يرتدى الياقة البيضاء ويضع تحت ابطه اكواما من الصحف والمجلات.

- ٦٠ -

المغنى الذى سأل حبيبته قائلا هل ستحبيننى فى شهر سبتمبر كما أحببتنى فى شهر إبريل كان مصيبا فى تساؤله.

إنه يدرك أن العواطف والانفعالات لا ثبات لها، ويدرك أيضا ان تبدل الفصول ودورة الزمن وما تحدثه من تحولات فى الطبيعة تطول أيضا عواطف البشر التى لا أمان ولا استقرار لها.

وإذا كانت المرأة قد منحته حبها فى شهر إبريل فما ذلك إلا تعبيرا عن الوشائج التى تربط الإنسان بالطبيعة فهو فصل الخصب والنماء وموسم الأزهار والفراشات والألوان والأعشاب المبللة بالندى، والعبير الذى يعبق فى الفضاء والطيور التى تعزف أناشيدها والأفق الذى يرسم لوحاته حيث ترتدى الأرض حلتها الخضراء الزاهية، وتحصل الأشجار على لقاحها وتبدأ كائنات الغابة مواسم إخصابها، وينتشر الحب فى الهواء كالهواء، إنها الحياة فى دورتها المتجددة الخضراء ترغم قلوب البشر كما ترغم الكائنات الأخرى على تبادل الأشواق ومشاعر الحب والمؤانسة، وهى إذا ما كانت قد أحبته فى شهر إبريل استجابة لكل المظاهر التى تغمر الطبيعة، فمن سيضمن له انها يمكن ان تحبه بذات القوة والاندفاع عندما تتبدل دورة الفصول وينتهى موسم الزهور والغناء، والالوان واللقاح والاخصاب.

هل ستحبيننى فى شهر سبتمبر كما احببتنى فى شهر إبريل؟

لقد جاء الخريف حاملا لونه الاصفر واوراقه الذابلة ورياحه المحملة بالاتربة والغبار ليعرى الاشجار من

خضرتها ويزيل عنها نضارتها ويرسل الطيور إلى مهاجرها ويمنعها من مزاولة الانشاد والغناء، فهل سيغنى له قلب هذه المرأة كما غنى له فى فصل الربيع؟ يبدو ان المغنى لم يطرح هذا السؤال إلا لأنه يعرف أن ذلك الامر متعذر الحدوث، ولعله فتش فى قلبه عن هذا التحول قبل ان يفتش عنه فى قلب حبيبته، فالسؤال يتضمن - بحسب تعبيرات علماء النفس - شيئا من اساليب الاسقاط، وبدلا من ان يتحدث عن شكه فى عواطفه نحوها وصمودها لدورة الفصول وتبدلات الطبيعة اتجه بهذا الشك إلى حبيبته مداريا ما يعانيه من ازمة ثقة فى حبه وعواطفه!

هل ستحبينني؟

ولن يغيب عن فطنة القارئ ان هذا الكلام لا يمكن ان يكون كلام اغنية عربية، فنحن فى تعاملنا مع الحب لا نتعامل بهذه الواقعية وهذا التناول الصادق للمشاعر والانفعالات الذى لا يأتى الا عن تجربة ومعاناة، ان الحب فى اغانينا يبقى تعاملا مع المثال وليس مع الواقع، لقد حاصرت الحب فى مجتمعاتنا الكثير من الشبهات وعانى العشاق دائما من التزمت والانغلاق، فظل الحب محاطا

بالمحاذير والاخطار ولذلك فان مغنينا يتحدث عن حب لا وجود له فى الحياة. انه يصنع جزيرة معلقة فى الهواء وعشاقا من الاوهام والاحلام ويتحدث عن حب ابدى سرمدى لا يصيبه الوهن والاعياء أو يتحدث عن حب يائس ويضفى عليه من المزايا والصفات ما يجعله مناقضا للطبيعة البشرية كأن يقول على سبيل المثال بأن "الحب من غير امل اسمى معانى الغرام" كما ورد فى احدى الاغنيات العربية الشهيرة، وهو تمويه للعواطف وتزوير للحقائق، واذا حدث فهو حب مريض يعانى صاحبه من أمراض الماسوكيزم وإيذاء الذات.

ويبقى الحب بكل معانيه وأشكاله ظاهرة انسانية هى بلا شك أجمل وأنبل ما يعمر القلب البشرى ويبقى الغناء الذى يمجد هذه العواطف ويشيد بها تعبيرا عن توقنا الدائم لتحقيق افضل الشروط التى يزدهر فى ظلها الحب، حتى لو تطرف هذا المطرب العربى فى تصويره لعاطفة الحب فنحن لن نمتنع عن الاستماع إلى اغانيه أو نهرب منها إلى أغانى الآخرين التى تصور واقعا آخر وحياة اخرى سوف لن نستطيع ان نحقق تواصلا معها بمثل ما نحققه مع اغانينا التى

تتحدث عن حب مأزوم وتعكس بذلك جزءا من أزمتنا وأزمة واقعنا.

هل ستحبينني؟

وهى قد لا تحبه فى شهر سبتمبر بمثل ما أحبته فى شهر إبريل، وقد يلحق عواطفها الوهن والضعف فى هذا الفصل من فصول العام، ولكن هناك ربيعا سوف يأتى يعيد للقلوب وهجها الذى خبا ويعيد للعواطف اشتعالها الذى أطفأته رياح الخريف أو أمطار الشتاء.

لا أدرى مدى ما تتمتع به أسطورة ساندريللا من نفوذ وسحر على قلوب الأطفال هذه الأيام، ولكن هذه القصة بشاعريتها وإنسانيتها والقيم الجميلة التى تنتصر لها وممثلى قوى الخير والشر الذين يتصارعون فوق صفحاتها حتى ينتصر أهل الخير على أهل الشر، كانت على أيام طفولتنا مصدرا لا حد له للبهجة والفرح.

لقد تحولت تسلية الاطفال وثقافتهم إلى صناعة كبيرة مهولة، واحتكارات دولية تعمل بملايين الملايين من

الدولارات، وبعد سيل الكتب والمجلات وافلام الرسوم المتحركة جاءت الآن الاشرطة المسجلة المرئية (الفيديو). وصناديق الالعاب الاليكترونية المربوطة بشاشات التلفاز وصالات الالعاب التى تمتلئ بالات غزو الفضاء، لتصنع سوقا تجارية عالمية تستثمر فضول الاطفال وحبهم للدهشة والانبهار، ولم يعد سهلا ان يسيطر الواحد منا على توجيه اطفاله وترشيدهم لما يجب مشاهدته أو قراءته أو استخدامه أثناء ساعات اللعب والفراغ، فالسوق صار يفرض قوانينه التى أبطلت آراءنا وافكارنا، ويتولى بنفسه ارغام الاطفال على قراءة ومشاهدة واستخدام ما يريده هو لا ما يريده المربون وأولياء الامور.

ووسط هذه الحروب التى تدور فى الفضاء، والصراعات التى تنشب بين سكان الكواكب والنجوم واجرام السماء، وافعال الرجال العجيبين الذين يمشون فى الشوارع بأعين وآذان وعضلات الكترونية، ويمارسون الفتك والدمار التى يستخدم فيه الاشعة بدلا من المتفجرات، صار من الصعب على كائن رقيق جميل بالغ العذوبة والرهافة مثل ساندريللا ان تجد لها مكانا وسط هذا العالم الجديد المتسلح

بانجازات عصر الفضاء وحرب النجوم والذى يواجه فى كل لحظة احتمالات المحق والفناء. لقد أضحت ساندريللا هذا الرمز الجميل للنقاء والمحبة والبراءة، كائنا غريبا وسط بشاعة هذه المخلوقات الآلية والكائنات الاخرى القادمة من مواكب تبعد عن الارض ملايين السنوات الضوئية والتى تملك قوة مرعبة على الفتك والدمار.

لقد ظلمت ساندريللا مرتين، مرة على يد زوجة ابيها التى اهملتها وضربتها ومنعتها من الذهاب إلى حفلة الامير، ومرة ثانية على ايدى "غزاة الفضاء" الذين يقتحمون اليوم بيوتنا ويستحوذون على عقول اطفالنا ويتولون تربيتهم بالنيابة عنا.

اننى احد الذين احبوا ساندريللا، واحتفظوا لها بهذا الحب رغم تقادم السنين والاعوام، ومن بين اكوام القراءات الكثيرة التى عرفتها أثناء الطفولة ظلت ساندريللا تقيم اقامة دائمة بوجدانى، لقد ظلت وشما محفورا على القلب ورمزا لا يغيب لذلك العالم الساحر المدهش الجميل الذى يشرق فيه الحق ماسحا سحب الظلم والظلام وينتصر فيه الحب بعد جولة فاشلة من جولات الحقد والكراهية.

وبرغم كائنات "جراند دايزر" ذات السطوة والقدرة الاسطورية على الفتك والدمار، فان ساندريللا جزء من التراث الانسانى الذى لا يموت، قد تختفى عن انظارنا بضعة اعوام ولكنها ستعود كما عادت فى آخر القصة لكى ترتدى ذلك الحذاء السحرى الذى لا يليق بأية قدم اخرى غير قدمها الصغيرة، ستعود ساندريللا وسيعود بصحبتها بينوكيو صاحب الانف المضحك الطويل وروبنسون كروزو رائد الجزيرة الخفية المجهولة خلف البحار وسندباد جواب الآفاق والمحيطات وعلاء الدين ومصباحه السحرى، وكل ابطال وبطلات عالم البهجة والجمال والحب والبراءة والدهشة والمغامرة بعد ان تنتهى قريبا موجة اساطين الفضاء وحرب النجوم بعيونهم القبيحة البشعة واصواتهم المنكرة التى تتحدث عن الموت والقتل والجريمة.

- ٦٢ -

بدا واضحاً أن هذا الطائر الذى يعبر الآن فوق رأسى ويحوم فى الفضاء راسما عدداً من الدورات لم يكن يسعى لهدف معين، لم يكن طيرانه رحيلا إلى جهة ما، ولم يكن

بحثا عن صيد يقتنصه أو سعيا وراء ماء أو طعام أو عش يأوى اليه، كان واضحا انه ينشر جناحيه سابحاً فى الفضاء لوجه المتعة والانطلاق والحرية.

فقد ظل يحوم دونما توقف، يعلو ويهبط فارداً جناحيه الابيضين فى الهواء، مستجيبا لتيارات الريح الهادئة اللينة التى تساعده على الانسياب برشاقة وعذوبة واطمئنان، تاركا جناحيه احيانا ساكنين دونما حركة وكأنه يطير نائما أو ناعسا، وقد بدا لى منتشياً بحريته، مستمتعا بالمناخ الجميل، والشمس المشرقة والسماء الزرقاء الخالية من السحب.

طائر يرقص فوق مساحة باتساع الأفق، فكل هذا الأفق له.

وكل هذه السماء حقل لنزهته.

وكل هذا الفضاء الشاسع الرحب ملك لجناحيه.

لا يعنيه ان يعرف شيئا عن قوانين الجنسية وتأشيرات المرور وجنود الجمارك ونقاط الحدود والتفتيش بين البلدان.

ولا حاجة إلى جوازات السفر المليئة بالاختام والامضاءات أو شهادات الجنسية والانتماء لدولة أو قبيلة.

لا حاجة به إلى قراءة قوانين الهجرة والاقامة وتعليمات وزراء الداخلية ورجالات الأمن والحراسة.

إنه طائر لا يحمل اوراق هوية ولا عضوية حزب أو نقابة أو رابطة للطيور تدافع عنه امام المحاكم وأرباب العمل.

فهو لا يذهب إلى عمل يأكل نصف عمره ولا يعرف السجلات التى يعدونها للتوقيع واثبات الحضور والانصراف.

لقد احبه ا فانجاه من كل هذه القيود والاغلال والأوتاد التى تشد الانسان إلى الأرض وتمنعه من حرية الحركة والانطلاق والسياحة فى حقول السماء.

كما انجاه ا من قراءة الصحف التى تتغذى باخبار الكوارث والحروب والانقلابات والدماء أو الاستماع إلى نشرات الاخبار التى تمتلئ بقصف القنابل ودوى الرصاص.

ولا تعنيه من قريب أو بعيد نتائج الانتخابات الامريكية ولا مفاوضات الحرب والسلام بين عساكر الهنود وفهود التاميل ولا يتابع بقلق واكتئاب بورصات العملة وارتفاع الدولار وهبوطه.

ولذلك فقد حق له ان يفرد للريح جناحيه، ويمضى سابحاً فى ملكوت الرحمن يهبط قليلاً إلى الأرض متى اراد، ليشرب من جداولها، ويملأ حوصلته بطعام لن يجد فى التقاطه مشقه أو عناء، ولن يقتضيه مذلة أو انحناء، ثم يمضى إلى سبيله حراً، كريما، عزيزا، يرقص مع الريح، ويغنى لضياء الشمس.

ولا ادرى كيف غمرتنى لدى رؤيته لحظة مليئة بالبهجة والفرح، وكأن هذا الطائر الجميل الكريم اعارنى جناحيه لأمضى سابحا معه فى ربوع الفضاء، ثم فجأة تبخر الفرح عندما تصورت ذات لحظة عابرة ان صياداً يحمل بندقية صيده ويختبئ فى الأدغال القريبة وانه يضع الآن اصبعه على الزناد ويطلق على الطائر الجميل رصاصة تجعله يسقط فوق الأرض مزقا واشلاء.

كانت مجرد لحظة عابرة لا معنى لها، فقد رفعت بعدها رأسى لأجد ان الطائر ذا الجناحين الابيضين مازال هائما فى الفضاء جميلا، وكريما، وحراً، وكأنه لا ينتمى لكائنات الأرض وانما ينتمى فقط لحقول السماء.

إنى أتهم !

تشير بأصبع الاتهام لأشباح الظلام، وترفع صوتك فى فراغ الليل، وتخترع لنفسك محكمة وهمية بهيأتها وجمهورها، وما أن تنعقد المحكمة ويرتفع صوت الحاجب قائلا: "محكمة"، حتى تصيبك ارتجافة كبيرة يهتز لها بدنك كله، لأنك تنسى لماذا دعوت هذه المحكمة العاجلة للانعقاد، وايقظت كل هؤلاء القضاة والمدعين والشهود والجمهور من نومهم واحضرتهم إلى غرفتك. وانت فى الحقيقة تملك اتهاما ولكنك لا تملك انسانا توجه اليه هذا الاتهام. كنت تظن منذ لحظات انك تعرف هذا الإنسان الذى افسد عليك احلامك وأطلق الكوابيس فى ليلك وأرسل جعارينه تقرض المراتب والوسائد فتمنع عنك النوم وترغمك على الأرق والسهاد، ولكنك الآن بعد أن ارسلت فى طلب المحكمة وجاءت للانعقاد كى تسمع اتهامك وتنظر فى قضيتك وتسعى لانصافك، تجد نفسك حائرا لا تعرف انسانا واحدا بملامح واضحة محددة تستطيع ان توجه اليه الاتهام، وتطلب من عدالة المحكمة ان تحاسبه على ما ارتكبه فى حقك من مظالم

وآثام. ان قضيتك جزء من قضية عامة تشمل وطنا بأكمله ومشاكلك جزء من مشاكل هذا الوطن وهمومه وأزماته، ولو ان كل هذه المشاكل والقضايا والهموم والأزمات، استطعنا ان نضع مسئوليتها فوق كاهل رجل واحد لجاء الفرج وانتهت المحنة وذهبنا جميعا إلى هذا الرجل ننصب له المحاكم فى الظلام وننزل به اقصى انواع العقاب حتى يذوب وهو نائم أو يتبخر فى الهواء بفضل محاكمنا الوهمية التى سرعان ما تتحول إلى محاكم حقيقية نقيمها له فى ضوء النهار لو اتفقنا جميعا على من سيكون هذا الرجل.

ولكن المشكلة اكبر من رجل واحد مهما كان سلطانه واسعا ونفوذه قويا، وهى أكبر من مجموعة رجال مهما تنوعت قدراتهم وتعززت مراكزهم، انها اكبر منهم جميعا حكاما كانوا أو غير حكام، فهؤلاء مهما يطول بهم الزمن، فإن سنة الحياة تجرى عليهم كما تجرى على غيرهم من الناس، يأتون ويذهبون فى نهاية المطاف دون ان تذهب هذه المشاكل مع ذهابهم، أن المشكلة التى حسبت ان حاكما أو مسؤولا هو الذى اوجدها، تكتشف بعد مضى السنين وغياب ذلك المسؤول انك كنت مخطئا، وان تلك المشكلة اكبر من ان

نحملها لمسؤول بمفرده مهما اصابنا فى عهده من تقهقر وانحدار وليس معنى ذلك بطبيعة الحال ان نبرئ أى مسؤول اساء المسؤولية من جرائمه أو نمتنع عن ادانته والتنديد بأفعاله، ولكن ذلك لا يعفينا من النظر إلى كل جوانب الصورة والانتباه إلى جذور هذه المشاكل الكثيرة المتأصلة فى تربيتنا ونفوسنا، إذ إننا كثيرا ما نرى اوجه القصور لدى الآخرين وننسى انفسنا، ننسى ان نسأل اين نحن من هذه المشكلة، وما مدى مسئوليتنا الشخصية عنها، أو ما هو دورنا فى حلها، اننا مثلا نتحدث عن الديمقراطية بأسى وحرقة ولوعة، ونطالب بها ونهاجم القوى التى تحجبها عنا ونعتقد انها ستكون حلا سحريا لمشاكلنا، ولكن هل تأملنا قليلا فى انفسنا ورأينا إلى أى مدى نحن نتمثل هذه الديمقراطية فى سلوكنا وتعاملنا مع الناس، هل كنا دائما ديمقراطيين فى معاملة اطفالنا وعائلاتنا وفى سلوكنا مع اهلنا وأصحابنا، هل كنا ديمقراطيين مع الذين يخالفوننا فى الرأى فلم نطالب باسكاتهم أو نغضب وننفعل ونتمنى لو استطعنا نفيهم من البلاد.

إن الديمقراطية ليست سلالا تهبط من سقف الكون، أو هبة تأتى من حاكم أو مسؤول، إنها قبل ان تصبح نظاما يحكم المجتمع يجب ان تكون سلوكا وممارسة يتجليان فى افعال كل واحد من أبناء ذلك المجتمع وأعماله واقواله، وهكذا الحال مع مختلف القضايا الاخرى التى نتأثر بها بمثل ما نؤثر فيها، ولذلك فاننا عندما نعقد محاكمنا الوهمية فى الظلام ونرفع اصابع الاتهام ونبحث عن رجل نحمله مسؤولية ما يصيبنا من أرق وسهاد وكوابيس لن نجد سوى شبح لا ملامح له، شبح ذابت فى ملامحه الغامضة ملامح جميع الناس بما فيهم انفسنا، فهم جميعا مسؤولون عن هذه المشاكل التى اورثتنا امراض الليل والنهار، وهم جميعا مطالبون بتحرير انفسهم وأوطانهم ومجتمعاتهم من هذه الأمراض، والانتقال من مرحلة الشكوى والأنين إلى مرحلة المشاركة الايجابية فى تغيير الواقع وتطويره واثرائه بالعمل والانجاز والابداع لا بالمحاكم الوهمية التى نعقدها فى ظلام الغرف المغلقة.

يوم فى حياتك، أو حياتى، أو حياته!

فلنسم صاحب اليوم فلانا.. أو فلنسمه بلالا أو سعيدا أو عليا (أو لعل من الافضل محو اسمه محوا كاملا، ولنبدأ بتسجيل وقائع يومه مقلوبا أى مع نهاية المساء بدلا من بداية الصباح).

ويقفل التلفاز صاحبنا وقد اعطى التحية للنشيد وللعلم (واثبت بذلك انه مواطن صالح لا يمكن ان تشك اجهزة الامن فى ولائه للوطن والشعب).

ويفتح بعد ذلك دفتر الليل، لكى يقرأ بعض المقاطع من أناشيد الجناذب أو اناشيد العناكب أو أناشيد الضفادع أو اناشيد العنادل أو اناشيد الشجر (فذلك يتوقف بطبيعة الحال على مستوى البيت الذى يسكنه دون ان تكون لذلك دلالة على أى انتماء سياسي).

ثم يغفو

ويذاكر فى كتاب الاحلام اشياء تناستها مقصات الرقيب، ولم تقلها مذيعات قرأن نشرة الاخبار كاملة ودون مشقة فى رفع مجرور ونصب الفاعل، (وباعتبار ان الشرائع

والقوانين لا تحاسب الانسان على احلامه فهو يعرف انه محصن ضد أى عقاب نتيجة هذه الاحلام).

ويفسد حلمه مرض قديم فى الكلى، يبقى طوال اليوم مختفيا ويظهر عندما يغفو الرجل.

يتناول أول حبة من جيب معطفه لتسكين الالم، وهى تدر البول كى يمضى - شفاه ا - بعض الوقت فى الحمام منفيا ومطرودا.

يغفو لبعض الوقت، يوقظه المنبه، فيقوم مفزوعا إلى الحمام يمشط شعره ويزيل عن عينيه آثار النعاس، يضع رداء فوق جسمه للنهار، ويرتدى الدرع الذى سيقيه ضربات النعال فللنهار مشاكل ومثالب وسلالم ومصاعد وقوادم وحوافر ومخالب وسهام (وعليه ان يستعد لدخول معركة اخرى مع النهار الذى لا يسمح بالعبث أو اللعب أو رفع الكلفة مع نساء الحلم).

ولأن صاحبنا ابتلاه ا بالأرق وبالعمل الذى يحتاج ان يصحو اليه مبكرا (فيحاول المسكين ان يصل إلى مصالحة بين الليل والنهار وبين النوم واليقظة وبين الصحة والالام الكلى وبين عالم الحلم وعالم الواقع).

فيقفل احدى عينيه على الليل، ويختزن الرؤى الجميلة (كى لا يراها مولع بتسقط الاخطاء فى الحلم).

ويفتح عينه الاخرى ليرتاد النهار

يمضى سريعا نحو رزقه

متلفتا نحو اليمين

متلفتا نحو الشمال

كى لا تداهمه ضباع من حديد أو ذئاب من دخان، حتى يصادف حفرة فى الأرض، أو ثقبا نسميه العمل (حيث يغوص فى تلك الحفرة اغلب ساعات النهار، تاركا لديها بعض عمره، بعض اعصابه، بعض ماء الوجه).

ثم يطفو مرة أخرى على سطح النهار ويطوف صاحبنا قليلا بالشوارع باحثا عن طيف امرأة يقارب شكلها تلك التى جاءت اليه فى المنام، لكنها الاحلام تكذب، مثلها مثل شيء يبهج القلب بأوهام الخيال، زهرة، أو نجمة، أو قوس قزح. لحظة ثم يذوب الوهم. لحظة أخرى وينداح الظلام.

ويعود مشتاقا إلى تلفازه، فهناك فى التلفاز تمثيلية لم تنته، وموظف هجر الوظيفة واستحال لقاتل، ومعارك ومجازر ومحاكم ونيابة وقضاء (وعليه الآن ان يختار بين

هذه الادوار جميعا، فهو احيانا يجد نفسه فى دور المجرم واحيانا فى دور الضحية واحيانا فى دور القاضى دون ان يهتدى إلى دوره، فكل الادوار تنطبق عليه وتتماثل مع حياته).

ثم تأتى، قبل ان يختار موسيقى الختام، علم يرفرف فى الفضاء

بوق ومزمار وأوتار تناديه لتقديم الولاء فيؤدى صاحبنا التحية والسلام.

ويعود مثل الامس للدوران فى ذات السواقى. نوم واحلام وآلام وحمام وأدوية لتسكين الألم وقراءة فى دفتر الليل وأوراق الظلام.

مازال وجهها مليئا بالنعاس، تتثاءب وتمد ذراعيها وتفتح عينيها بصعوبة واجهاد وكأنها قامت لتوها من مرقدها. جميلة هى، ولكنها جاءت راكضة تلحق بالقطار قبل ان تكمل زينتها أو تقوم بترتيب شعرها وهندامها، فتبدد شيء من جمالها فى فضاء المسافة بين النوم واليقظة.

وما ان وجدت مقعدا شاغرا فى القطار ترتمى فوقه حتى اخرجت مرآتها ومشطها لتقوم بترتيب شعرها، كما اخرجت علبة البودرة تضع شيئا من دقيقها على بشرة الوجه تخفى به ظلا صغيرا تسلل إلى نضارة وجهها. وبقى راقدا تحت عينيها اثر اجازة صيف وقصة حب انتهت مع الاجازة. ستصل بعد قليل إلى مقر الشركة التى تعمل بها، وسوف تقطع المسافة من محطة القطار إلى مقر العمل ركضا لان ما تبقى من الوقت لا يتيح لها ترف ان تمشى كما يفعل بقية الناس. وسوف تقابل فى الطريق عمتها التى لم ترها منذ اكثر من عام مضى، ولكنها لن تستطيع ان تقف لتحيتها، ستلوح لها من بعيد بيدها وتمضى راكضة إلى عملها.

تجلس هناك وامامها آلة كاتبة كبيرة سوداء، تعمل بالكهرباء، فالكهرباء تساعد على انتاج كم اكثر من العمل، وستجد بانتظارها كومة من الاوراق تحتاج إلى طباعة، تبدأ فور وصولها فى طباعتها وتشعر بالارتياح لأنها انجزت جزءا كبيرا منها، ولكن اوراقا اخرى تأتى لتعيد الكومة إلى حجمها الاول، وتضيع لحظة الفرح وتواصل الضرب بقليل من العصبية هذه المرة. أصابعها على مفاتيح الآلة، وعيناها

على الورق، والضجيج الصادر عن الآلة يصنع حلقات فوق رأسها، يصيب أصابعها التعب، ويصيب عينيها الملل من قراءة الورق، فتتوقف لحظة لتنظر من خلال الشباك إلى الافق، ولكن جدارا يحاذى جدار مكتبها يسد عليها منافذ الرؤية ويحجب عنها لون السماء. تحارب الضجر والارهاق وتعود إلى ضرب الازرار بحركة آلية روتينية لا علاقة لها بالارادة الواعية، فقد ذهب الوعى يستحضر شطآنا تغسلها الشمس ويضربها موج البحر وهى تستلقى بجسمها فوق الرمل تمتص رحيق الشمس. منذ متى لم تأخذ إجازة من العمل، مضت اشهر طويلة منذ ان أخذت تلك الاجازة، ولكن أشهرا طويلة اخرى سوف تمضى قبل أن يحين موعد اجازة جديدة. من أين تراها تأتى هذه السحائب التى تملأ صدرها مللا وضيقا، عمل وأوراق وحروف وأزرار وحبر وأشرطة وتكتكة تضرب جدران الغرفة وترتد لتخترق طبلة الاذن تأكل الضوء والهواء وساعات النهار، من التاسعة إلى السادسة، وبينها استراحة مدتها ساعة واحدة تكفى بالكاد لتناول ساندويتش اللحم البارد. لحظات منسوخة بالكربون تشبه بعضها بعضا. ويوم يكرر نفسه، وعمل لا يثير شهية

للعمل، فهل تستقيل؟ ولكنها تذكر الاشهر الطويلة التى امضتها تنتقل بين وكالات التشغيل، ساعات الانتظار امام ابوابها ووسط طوابيرها، فرحة الذهاب إلى امتحان أو مقابلة. ثم لحظات الخيبة والانكسار عندما يختارون راقمة غيرها ويتركونها. انها لن تعود إلى ذلك العذاب. لقد ضمنت عملا ودخلا وبطاقة تأمين. كان هذه هو حلمها، ان تستقل بحياتها، ان تحقق دخلا يسد حاجاتها، ان تعتمد على نفسها، ان تصبح سيدة يومها وغدها، لا تعتمد على احد الا على جهدها. ولكن ماذا عساها تفعل مع هذا الضجر الذى يتسلل مع رائحة الحبر وضجيج الآلة ويملأ صدرها، هل كانت ستلقى هناء اكثر لو انها جاءت فى زمان قبل هذا الزمان عندما كان عمل المرأة هو ان تقف امام المرايا تتأمل جمالها وتنتظر عودة زوجها؟ وهل كانت تلك الجدة القديمة التى تكتفى بالاعتناء ببيتها وحديقتها واطفالها افضل حالا منها؟ لم تكن تلك الجدة تركض فى صباها منذ الصباح الباكر لتلحق بالقطارات، ولم تكن تمشط شعرها امام الغرباء فى محطات القطار، ولم تكن تجلس نهارا كاملا امام آلة كبيرة سوداء

تطبع رسائل ذات صيغة معادة مكرورة يوما وراء يوم وعاما وراء عام.

تحين ساعة الغداء، فتترك الآلة والاوراق وتهبط مسرعة إلى دكانه تبيع الاكلات السريعة، ستشترى طعامها وستدفع الثمن.

المرأة التى جلست تسأل نفسها قبل أن تلتقى بحبيبها عما ستقوله له إذا جاء يسألها إن كانت تكرهه أو تهواه، تعرف على وجه اليقين أنها تهوى ذلك الرجل، فهذا ما سوف نعرفه نحن أيضا فى نهاية المناجاة التى صاغها الشاعر على لسان امرأة، ولكنها مع ذلك تكابر وتتمنع وتتظاهر بالجفاء والصد، وتتحدث عن الكراهية لتواجه بها سؤال ذلك العاشق المتلهف لسماع كلمة تطفئ حرقة القلب وترضى تلك الصبابة التى يعانيها والشوق الذى يكابده، والقصيدة تتعرض إلى إشكالية تتصل بعلاقة الرجل بالمرأة، وهى إشكالية مازال الرجل يقف أمامها حائرا منذ بداية الحياة البشرية فوق الأرض. إن المرأة بكل رقتها وعاطفيتها تبدو أكثر قدرة منه

على لجم عواطفها والسيطرة على انفعالاتها فى لحظات المواجهة معه. وكأن طبيعتها الأنثوية قد زودتها بسلاح يحميها من هذا الإسراف العاطفى، وبمثل ما زودتها برقة الشعور ورهافة الإحساس وغزارة العاطفة فقد زودتها أيضا بإرادة قوية تجعلها قادرة على وضع غطاء فوق هذا الفيض العاطفى الوجدانى فلا نراه إلا عندما تسمح إرادتها بذلك. وتستطيع فى أكثر اللحظات وجدا وانفعالا أن تحجبه وتخفيه وتجعلنا نقف على بابها نتلظى حرقة وشوقا وحرمانا، ولذلك فإن الرجل هو الذى يسعى إلى المرأة وهو الذى يبدأ بالبوح والكشف عن عواطفه، وهو الذى يعانى ويتعذب من أجل كلمة ترفض أن تقولها، إنها تتمنع وتتأبى وترفض الاستجابة السريعة لما يبديه من حب ولوعة برغم أنها تحبه بأكثر مما يحبها، وقد جاءت للقائه برغبتها كلها، وبقلبها كله، إلا أنها تقاوم نداء القلب ونداء الرغبة وتقف لتسأل نفسها ماذا تقول له، وكأنها محارب يرسم الخطط والتكتيكات فى صراعه مع عدوه، والدرس الذى تقدمه لنا ليلى العامرية درس يمكن الاستفادة منه فى فهم طبيعة المرأة، فلا شك أنها أحبت قيسا بمثل ما أحبها، ولا نجد شاهدا فى التاريخ يقول إنها أرغمت

إرغاما على زواجها من ورد، كانت هذه رغبة أهلها، الذين استشاروها وخيروها فاختارت ما اختاروه لها، وتركت قلبها وتركت قيسها واستخدمت إرادة قاسية تستجيب بها لرغبة العائلة ونداء القبيلة. قمعت عواطفها وتنكرت لحبها وذهبت إلى مخدع زوجها و"قتلت" قيسا. تركته يهيم فى البيداء جنونا ويموت حبا، لأنه لم يكن يملك إرادة قوية كإرادتها، ولا قدرة على التنكر لحبه مثل قدرتها، فهى الأنثى وهو الرجل، وهى ليلى ابنه التراث الأنثوى العريق فى مواجهة الرجل، وهو قيس ابن ابيه الذى لا يستند لتراث كتراثها ولذلك أهلك الحب قيسا ونجت ليلى. والشاعر عندما وضع هذا التساؤل على لسان المرأة كان مدركا أن باستطاعتها أن تقول له فى أكثر لحظات الحب توهجا واشتعالا أنها تكرهه، تتنكر لعواطفها وتقولها، تنسى قلبها وتقولها، تنسى غرائزها وتقولها، تقولها اختبارا له أو انتقاما منه أو استجابة لظرف عائلى أو رغبة فى تأديبه لأنه عندما جاء لم يكن يحمل وردة فى يده. ويقف الرجل حائرا، يتساءل بينه وبين نفسه كيف تستطيع المرأة أن تفعل ذلك، إن لديها عاطفة أكثر جيشانا وفورانا من عواطفه، ولديها قلبا أكثر رقة من قلبه، ولديها غريزة مثل غرائزه،

ودما يهدر فى عروقها ويصدر نداء مثل النداء الذى يصدره دمه، فكيف تستطيع مع ذلك كله، أو برغم ذلك كله، أن تقف هذا الموقف الفاتر البارد، الذى يقيس الأشياء بمقاييس العقل المجرد من أى عاطفة أو وجدان، تقفل فى وجهه الباب وتترك هذا العاشق الذى يحبها وتحبه تائها حائرا ضائعا ينتظر مصيرا كالمصير الذى واجهه قيس على يد ليلاه. ولا جواب سوى أن تلك هى طبيعة الأنثى.

- ٦٧ -

رأيتها فكأننى رأيت سحائب عامرة بالماء والبرق بعد اعوام من القيظ والقحط والجفاف. مزن جاءت تحملها ريح مباركة مكتنزة بالغيث والخصب، تحمل الوعد والبشارة، وتجدد فى قلبى الامل الذى خبا، وتملأ نفسى توقا لايام اكثر بهجة وأوفر خيرا وحبا.

مضت اعوام كثيرة على افتراقنا، والتقينا لقاء صدفة لم يسبقه تمهيد أو ترتيب، بحرارة ولهفة تصافحنا، والشوق القديم يلون الكلمات والاصابع والملامح وكأن السفر والرحيل وتواتر الايام والفصول لم يزده الا حدة وتوهجا وعنفا. فرحة

نادرة جاءت من خلف افق مغلق لم يكن يعد بأية مفاجآت، بعد ان تباعدت بيننا المسافات وطوحت بنا الايام كل فى طريق.

انتحينا بانفسنا مكانا بعيدا عن صخب المهرجان الذى جئنا لحضوره وجلسنا نستذكر الماضى ونحاول استحضاره، لم يكن حديثنا بوحا وشوقا، ولم يكن تبادلا لكلمات الملامة والعتاب، وانما محاولة للاهتداء إلى انفسنا واعادة التعرف مرة اخرى على تلك الملامح والمشاعر والخصائص النفسية التى جعلتنا نقترب اقترابا حميما وعميقا من بعضنا. تبادلنا كلاما قليلا وصمتا كثيرا، فقد كان كل واحد منا يحاور نفسه اكثر مما يحاور الاخر، ينظر إلى وجه صاحبه ثم يرتد ببصره إلى عوالمه الخاصة، يفتش عن ذلك الشيء الذى تغير فى نفسه قبل ان يفتش عن الشيء الذى تغير فى الانسان الذى امامه. كان لقاء عامرا بالارتباك والتوتر، وكنا ننشد تواصلا لم يتحقق، ونحاول تعديل اجهزة الارسال فى نفوسنا كى تلتقى فى موجة واحدة دون جدوى. وشيئا فشيئا صارت تلك الشرارات التى اشعلها اللقاء فى نفسى تغيب فى ظلمة ماحقة. وبدأت أعى حقيقة موقفنا ونحن نلتقى لقاء

صدفة عند مفترق الدروب. ما اكثر المياه التى عبرت تحت الجسور والقناطر منذ افتراقنا، ما اكثر ما اصاب الدنيا من تبدل وتحول منذ ذلك التاريخ الذى عرف صداقتنا، لقد تغيرنا بمثل ما تغيرت الدنيا وعوامل التعرية وعناصر الطبيعة التى تنال من الصخور والجبال لم تكن ممنوعة عنا، ولم نكن محصنين ضدها ونحن الذين جبلنا من طين وتراب وماء، الذكرى وحدها ظلت صامدة لدورة الافلاك وحركة الكون وتبدل الفصول، ولكن الذكرى لم تكن تحتاج الا إلى لقاء مثل هذا اللقاء العابر القصير كى ندرك ان ما حملناه من شوق فى قلوبنا لان نلتقى مرة اخرى كان مجرد وهم جميل، سيمضى هو الاخر ليلحق بكل الاوهام الجميلة التى تعبر حياتنا كما تعبر السحب الخلب التى لا تصنع برقا ولا مطرا.

عندما انتهى اللقاء لم اشعر بأية خيبة، أو صدمة، أو ندم، كان ما احسست به مجرد شعور بالأسى لما يطرأ من تحولات على قلوب البشر وما ينال علاقاتهم من عجز وهرم. شعور بالأسى يرافقه شعور بالارتياح، فلقد حملت عبء هذه العلاقة أمدا طويلا، وكانت الصورة التى احتفظت بها فى ذاكرتى لهذه الصديقة فى مأمن من اى تغيير يطرأ

على الملامح والمشاعر. كانت صورة اخرى تختلف عن صورتها عندما التقيت بها هذا اللقاء، وعبثا كنت احاول ان تتطابق الصورة القديمة التى فى حوزتى مع الصورة الجديدة التى تواجهنى، كان الفارق كبيرا وكان الفراغ الذى فى القلب يزداد اتساعا.

انتهت ايام اللقاء، وتبدد الوهم الجميل، ولكن الصورة القديمة ظلت فى ذاكرتى لا يلحقها التبدل أو التغيير.